النتاج الأدبى لباحثة البادية

"ملك حفنى ناصف"

غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية

دكتورة

وفاء إسماعيل البردان

المدرس بقسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية

تقديم:

"أثبت تاريخ الحضارة الإنسانية استحالة ميلاد الرُوَّاد الذين غيروا مساراتها من فراغ، بل لابد من وجود الإرهاصات التى تسبق بزوغ نجمهم فى الأفق، أو الموجات التى يتصاعد مدها وتتدافع حتى تبلغ أعلى قممها التى تتمثل فى إنجازات هذا الرائد، لكن لا يعنى هذا أن هذا الرائد مجرد صنيعة للعوامل التى سبقت ميلاده ومهدت له، ذلك أنه يملك من الطاقات والقدرات والمواهب الشخصية ما يتفاعل مع روح العصر المواتى، بحيث يشارك بأكبر قدر ممكن من قوة الدفع التى تصل به إلى التربع على إحدى قمم العصر، وليست هناك مقاييسُ مُوَحَّدةٌ ومعايير ثابتة يمكن بها تفسير الأسباب التى أدت إلى هذه الطاقات والقدرات والمواهب التى يمتلكها هذا الرائد، ذلك أنها عوامل ذاتية بحتة تمكنه من التفاعل مع روح العصر بإيجابية رائدة، بل وتساعد على مواجهة تحدياته وإخضاعه لمنهجه الفكرى وهى عوامل تختلف من إنسان لآخر(١)، لذلك كان من الطبيعى بل ومن الضرورى تتبع مسار هذه العوامل التى مهدت لريادة "باحثة البادية ملك حفنى ناصف" بحسبانها أديبة ورائدة من رواد الإصلاح، فلا يُعْرَفُ فضلُ المصلحين فى أى عصر من العصور إلا بمقدار ما يؤدون للناس من عمل، وما يقومون به من إصلاح، ولا تبدو أعمالهم على حقيقتها إلا بالوقوف على أحوال أممهم، وما آلت إليه بلادهم من تأخر عند ظهورهم، وكانت "ملك" أول أديبة عربية فى العصر الحديث، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل للتراث كتراث، ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية من خلال نتاجها الأدبى المائل فى كتاباتها وشعرها.

ونتيجة لذلك حاولت الوقوف على لمحات من حياة الأديبة "ملك حفنى ناصف" وعصرها، وبيئتها ومكانة أدبها بين الحركات الأدبية الأخرى.

(١) تاريخ المصريين – عصر التنوير – د./ نبيل راغب – ص ١٧ – ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

ثم قسمت بحثى إلى مِحْوَرَيْنَ أساسيين:

المحور الأول: كتابات "ملك" غاياتها الإصلاحية وملامحها الفنية وقد احتوت هذه النثريات على مقالاتها – خطبها.

المحور الثانى: شعر "ملك" غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية، ثم ذكرت أهم النتائج وبعدها ثبت المصادر والمراجع.

والله أسأله التوفيق والسداد والقبول.

عصر باحثة البادية ملك حفنى ناصف

عاشت "ملك حفنى ناصف" فى أجواء سياسية وفكرية واقتصادية مضطربة غير مستقرة، فمن الناحية السياسية يقول لوثروب: "توالت الأيام على العالم الإسلامى وهو هاجع لا يستيقظ حتى القرن التاسع عشر فتململ فى مهجعه مستثقلاً وطأة الغرب، وفى ظلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الإسلامى، وتخضع له الأقطار فى شرق أوربا وجزر الهند، وأما جُلُّ العالم الإسلامى ومعظمه من مراكش حتى أواسط آسيا فقد ترك وشأنه فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة بل ظل مستغرقاً فى هَجْعَتِهِ مستهزئاً (بكفرة) أوربا راضياً مسلماً بأن شقاءه إنما هو بمشيئة من الله،ولا يقيم لرقى أوربا وزناً، ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً"(١).

كان العالم الإسلامى كالشيخ الهَرِم الذى حطمته الحوادث، وأنهكه ما أصاب من الكوارث فذاع وانتشر فساد الحكام وظلمهم واستبدادهم، مما جعل الناس يستسلمون لأقدارهم فباتوا يرددون قول الشاعر:

دَعِ المَقَادِيرَ تَجْرِى فِى أَعِنَّتِـــــهَا ∴ وَلا تَبِيتَنَّ إِلَّا خَالِـــــىَ الْبَـــــالِ(٢)

وبعد فترة استيقظ العالم الإسلامى من سباته الطويل فى مطلع القرن التاسع عشر فإذا بأوربا تقف بإزائه، مجنونةً بثورتها الصناعية، مدجَّجَةً بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع، وبين يديها الطبيعة مسخرة، وآلات حربية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل، وكانت النتيجة متوقعة حينما شرعت حملات أوربا تغشى

(١) جمال الدين الأفغانى، "تاريخه ورسالته ومبادئه" – محمد أبو رية – ص٥٧ – ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث–أحمد أمين– ص٤–ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م.

الشرق الإسلامى أن أخذت أقطاره يسقُطُ الواحد منها تِلْوَ الآخر فى أيدى الحاملين عليه، ولم يمض وقت طويل حتى كانت دول أوربا الكبرى قد اقتسمت جميع بلدان العالم الإسلامى "فاستولت بريطانيا على الهند ومصر، وعبرت روسيا القوقاس فاستولت على أواسط آسيا، وفتحت فرنسا شمالى أفريقيا وقامت سائر الدول الأوربية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية مـــن الغنيمة الإســـلامية"(١).

وما زال الحال هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى (١٩١٣ -١٩١٨) فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق للغرب، ولما وضعت شروط المعاهدات – بعد أن وضعت الحرب العامة أوزارها – قضى على كيان الدولة العثمانية، فلم يبق من بعد ذلك دول إسلامية مستقلة استقلالا صحيحاً فتم إخضاع العالم الإسلامى.

الناحية الدينية:

كان العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدنى والانحطاط أعمق درجة، وطبقت الظلمة على كل صُقْعٍ من أصقاعه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب، ويقول لوثروب: "استغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة فى الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم المضيئة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى فلا يرى فى العالم الإسلامى ذلك العهد سوى

(١) جمال الدين الأفغانى "تاريخه ورسالته ومبادئه" – محمد أبو رية – ص ٥٧.

المسلمين الغاشمين كسلطان تركيا وأواخر ملوك المغول فى الهند يحكمون حكماً واهناً"[1].

والدين قد غشيته غاشية ففقد روحه وصار شعائر ظاهرية لا تمس القلب ولا تحيى الروح، وسادت الخرافات، وانتشرت الأوهام، وكثر عدد من الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات، وانتشرت الأوهام، وأصبح التصوف ألعاباً بهلوانية، والدين مظاهر شكلية.

الناحية التعليمية والفكرة:

شغل الناس بأمر الظلم والواقع عليهم من الحكام عن طلب العلم وإجادة الفنون والصناعات، والعناية بالزراعة والاجتهاد فى تكثير المال بالتوسع فى التجارة ونحو ذلك "ولكن الجامع الأزهر الشريف وهو أكبر معهد تدرس فيه علوم الدين وعلوم اللغة العربية بقى سليماً لم ينل منه أحد وكذلك المعاهد الدينية الأخرى القائمة فى بعض حواضر الديار المصرية وعلى هذا، كانت المعاهد الدينية هى مصدر العلم والثقافة فى البلاد، أما التعليم الابتدائى فكانت تقوم به الكتاتيب المنتشرة فى جميع المدن والقرى، وهذه الكتاتيب كانت تقتصر على تعليم الصبيان القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن، على أنه فى بعض الكتاتيب، وهذه تدعى بالمكاتب وهى فى المدن خاصة، كان الصبيان يتعلمون الخط ومبادئ الحساب، أما المكتبات الزاخرة بنفائس الكتب فقد حمل العثمانيون أيام الفتح ما حملوا ، ونهب منها الظالمون شيئاً كثيراً ولم يسلم إلا المكتبات الخاصة بالأفراد[2].

(١) جمال الدين الأفغانى "تاريخه ورسالته ومبادئه" – محمد أبو رية – ص ٤٥.
(٢) تاريخ الأدب العربى – على الجارم وأحمد ضيف – ص١٩ – ط. وزارة المعارف العمومية ١٩٣٧م.

وإذا ضعف الدين ضعفت اللغة، فضعفت اللغة العربية وأصابها الركود بفتور أبنائها عن السعى الجاد فى شئون الحياة، وانقطاعهم عن طلب علوم الدنيا والتشبه بجدودهم فى العمل عن كل ما يعز شأنهم، ويرفع قدرهم ويعلى كلمتهم ويبسط فى الأرض سلطانهم، حتى لم يبق على الأقلام من آداب العربية التافه من الصيغ والتعبيرات ترص فى الرسائل رصاً وتحشر فى المكتبات حشراً لا يُطْلَبُ بها معنىً جليلٌ، ولا يراد منها غرضٌ سَامٍ بل إن المراد من تحبيرها هو تزيين اللفظ وتنميقه، وتحسينه بأنواع النكت البديعية"(١).

أما عن روائع آداب العربية وبخاصة الشرع، فكان يرسف فى قيود الصنعة والجمود، فإذا أتيحت الموهبة لشاعر أَخْمَلَتْهَا الزينةُ البديعيةُ وطَمَرهَا نضوب الفكر وجفاف العقل، وسذاجة الخيال، وسوقية التعبير" فلم يكن الشعر عند شعراء تلك الفترة إلا نظماً جارياً على الفن العروضى الذى يتشددون فى إحسانه والتبريز فيه، وإتقان أعاريضه وأضربه وزحافاته وعلله على وجه لا يميل بالشاعر فى أوزانه عن نهجه قيد أنملة، فأما ما وراء ذلك من معانى الشعر وأساليبه وأخيلته فأمر متروك إلى روح العصر ونمط تفكيره التى تنتهى كلها إلى التقليد(٢).

بدء اليقظة الإسلامية :

هذه حالة العصر الذى عاشت فيه باحثة البادية فى جميع أجوائه سياسياً، واقتصادياً وعلمياً وفكريا ودينياً، ولم يستمر الوضع القهرى طويلاً، ففى مطلع القرن التاسع عشر انفتحت مصر على أوربا وخصوصاً فرنسا وإنجلترا وكان ذلك أول احتكاك ثقافى وفكرى بين مصر والغرب، وانبهر المصريون بالتقدم العلمى الذى تمثل أمامهم فى جهود علماء الحملة الفرنسية، وبعد تولى محمد على حكم مصر

(١) تاريخ الأدب العربى – على الجارم وأحمد ضيف – ص ٣٠.

(٢) فى الأدب المعاصر –د. عبد الرحمن عثمان – ص١٣ – ط. دار النشر للجامعات المصرية ١٩٦٨م.

عمل على بناء دولة جديدة حديثة ذات كيان اقتصادى وسياسى وعسكرى قوى، وكذلك استناده على التعليم فى تحقيق ذلك الكيان، مما دفعه إلى استقدام النظام التعليمى الغربى الحديث برمته إلى مصر "وكذلك إيفاد العديد من البعثات العلمية إلى أوربا ولا سيما فرنسا، ومنذ ذلك الوقت احتكَّتِ العربية المصرية بالعقلية الأوربية المتقدمة حينذاك، ولقد أثر هذا الاحتكاك فى تكوين وتشكيل بعض الرجال الذين سافروا إلى أوربا لبعث الروح فى الأمة المصرية وإيقاظها من سُبَاتِها العميق"(١).

وكان المبعوثون هم أول صلة حقيقية بين مصر والثقافة الأوربية فى العصر الحديث وفى ذلك الطريق تولَّى هؤلاء المثقفون التدريس بالمدارس المصرية،وتلقفت المصالح الحكومية كثيراً منهم، وعملوا من جانبهم على نقل الثقافة الغربية عن طريق الترجمة، فعمدوا إلى مراجعة القواميس العربية، وتعريف المصطلحات الأجنبية، فاستفادت العربية ثروة جديدة"(٢).

ويقول صاحب "قصة الأدب فى العالم" عن الأثر الفكرى لاحتكاك مصر بأوربا:

"هذا الاحتكاك سواء عن طريق استيفاد الأساتذة من الأوربيين إلى مصر أو عن طريق بعث البعوث إلى أوربا، كان له أثره الخطير الذى ظل يعمل عمله فى حياة الشرف إلى الآن، فقد كان هؤلاء وهؤلاء نقلة للمدنية الغربية فى منهج بحثها وتعاليمها وطريق حياتها وأسس حضارتها"(٣).

---

(١) رواد التنوير الفكرى– د. شبل بدران–ص ٣، ٤–ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٣م.

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عهد محمد على– محمد جمال الدين الشيال – ص١٠ – ط. مطبعة القاهرة.

(٣) قصة الأدب فى العالم – أحمد أمين وزكى نجيب محمود – جـ٣ – ص٢٨٣ –ط. مطبعة القاهرة ١٩٤٨م.

وإلى جانب هذا الاحتكاك، كان هناك احتكاك آخر نتج عن وجود طبقة من مثقفى الأزهر والمعاهد الدينية، فكانوا يحيون حياة قديمة على نمط تفكيرى قديم فاحتكت العقلية القديمة بالعقلية الحديثة، والعلم القديم بالعلم الحديث، والأدب القديم بالأدب الحديث.

.. .. أما فى ميدان الحياة الاجتماعية، فقد تغلغلت الحياة الأوربية بمحاسنها ومساوئها ولقد وصف "شارلز ديكنز" هذه الفترة إذ قال: "إنه كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، وكان عهد اليقين والإيمان، وكان عهد الحيرة والشكوك، وكان أوان النور وأوان الظلام"(١).

وكان المجتمع المصرى يجتاز برزخاً من المتناقضات والمفارقات بين ما هو قديم وما هو جديد، وبين ما وفدت به المدنية الغربية من أفكار وتقاليد وما احتفظ به الشرق العثمانى من عادات وتقاليد، وظهر على الساحة من دعا إلى التمسك بالتقاليد الشرقية ونبذ التقليد الأوربى؛ لأنه مخالف لروح الشرق مثل عبد الله النديم، الذى يقول: " قالت أوربا إن وقوفكم على عاداتكم وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجيّةِ والتوحش فلابد من مجاراتنا فى حركتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة، وفتحت لنا الخمارات والمَقَامِر وأباحت الزنا ووسعت دائرة اللهو والخسران، فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف، وانكب الأغنياء على الخمور فساءت أخلاقهم، وضعفت عقولهم، وفسدت عقائدهم"(٢).

ويقول محمد طلعت حرب عن أثر اختلاط العرب بالأجانب:

"لما حصل الاختلاط بيننا وبين الأجانب بتداخلهم، فى بلادنا بالتجارة وبأسفارنا فى بلادهم، فسدت أخلاق الرجال والنساء، مما دخل من مسمى الغربية،

(١) العقاد ناقداً – عبد الحى أديب – ط ٧٦ – ط. دار الشعب.
(٢) مجلة الأستاذ – عبد الله النديم – عدد ١٧ يناير ١٨٩٣م.

حيث دخل الشرق الكثير من نسائهم البغايا، وفتحت المحلات جهاراً، وتعرضن للشباب وللكهول جهاراً، وما زال الفساد يترقى من صورة إلى أفظع منها حتى فسدت أخلاق كثير من النساء الشرقيات، فأخذن يتجرَّأْنَ على الخروج من البيوت سراً، ثم تظاهرن فخرجن نهاراً، ثم تمادين حتى صارت المرأة تترك زوجها، وتفتح لها محلاً فى بلده أو حارته، وانتهى الأمر بشرب النساء الخمر فزاد التَّهْتِكُ"[١].

تلك بعض الآثار السيئة للحضارة الوافدة، وللأجانب الذين أخذوا فى ظل الحماية يتصدرون المجتمع، ويزاحمون طبقاته العليا حتى أصبحت لهم مكانتهم فى قمة التنظيم الاجتماعى وأخذوا منها يبثون قيمهم فيمن حولهم من المصريين"[٢].

ونتج عن هذه الحضارة الوافدة بكل ما تحمله من تعليم وعادات تختلف عن تقاليد وعادات شرقنا زعزعة ثقة الكثيرين من المصريين فى أنفسهم، حتى وقر فى نفوس البعض منهم أن ما يفعله الأوربى حسن وأن ما ورثناه من عادات هو من بقايا الهمجية، ومن مخلفات عصور البلادة، ويبدو أن المجتمع المصرى فى هذه الفترة كان مهيئاً من الناحية النفسية لتَقبُّلِ ما يُمْلَى عليه، من أفكار وعادات دون نظر أو روية وفى وسط هذه الأجواء كان من الضرورى أن تقوم دعوات للإصلاح فى جميع مناحى الحياة، وخاصة بعد أن وجدت يقظة وصحوة إسلامية مثلها الدين الإسلامى فى القرن التاسع عشر، وكانت يقظة الاتجاه الإسلامى نتيجة لعدة عوامل أهمها:

المؤامرات الصليبية الأوربية التى كان يحيكها فى عواصم أوربا المكر والخداع ضد الإسلام والمسلمين الماثلين فى الخلافة العثمانية.

(١) تربية المرأة والحجاب – محمد طلعت حرب – ط٩٥، ٩٦ – ط. مطبعة الترقى ١٨٩٩م.
(٢) حاضر المصريين أو سر تأخرهم – محمد عمر – ص ١٩٣ – ط. مطبعة المقتطف.

كما ترجع هذه اليقظة الدينية إلى حركة إحياء التراث، وبعث أمجاد الماضى وحركة الإصلاح السياسى والدينى التى قادها زعماء الإصلاح الذين أفزعهم الانسياق وراء تقليد الغربيين فى كل شىء، ولم تقتصر، حركة الإصلاح على الرجال فقط بل شملت الجنسين معاً الرجل والمرأة، فكما كان للرجل دوره الفعال فى الإصلاح كان للمرأة دورها المؤثر والفعال حيال هذه الطفرة.

وضع المرأة فى مصر ورأى دعاة الإصلاح فى النهوض بها:

لا يمكن لدعوة إصلاح مهما يكن شأنها أن تقتصر جدواها على الزمن القريب أو التعبير المباشر الذى أحدثته، إن ثمرات الإصلاح مهما صغرت لبنات فى البناء يأخذ كل منها مكانه، ويشد بعضه بعضاً فى سبيل ارتفاع البنيان الشامـــخ، وآثار كل دعوة إصلاح هى لبنات فى كل ما وصلت إليه المرأة اليوم، وكل ما ستصل إليه غداً فى سبيل أن تمكن من أن تؤدى دورها الرئيسى فى الحياة فتسعد نفسها وتسعد من حولها وتسعد جيلاً لاحقاً بكل ما يمكن أن تتقن من عمل وأن تقدم من صبر ودأب وتضحية.

ولنذكر لمحات خاطفة عن رواد الإصلاح فى تلك الفترة كان رائدهم رفاعة رافع الطهطاوى الذى أكد فى كتابة "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" أمران هامان.. .. الأول: نظام الحكم، والثانى: الأحوال الاجتماعية، وعلى قمتها المرأة واضطهد رفاعة الطهطاوى بسبب ما أشاع من رأى يقرر حق الشعب فى إدارة الحكم فى بلاده مؤيداً ما رأى فى فرنسا، وفى كتابه "المرشـــد" تعرض الطهطاوى إلى الناحية الاجتماعية بتوسع، فعالج أوضاع المرأة، ونادى بوجوب تعليمها وعملها إذا فقدت عائلها ولكنه جند حجابها، وما كان يمكن أن يفعل إلا ما فعل على أنها مخلوق مكمل لوجود الرجل، ناقص بذاته وإن حمل أقدس الرسالات، وهى رسالة تربية النشء الجديد.

رسالة يراها أصعب المهمات، ويخص المرأة بها دون الرجل، ويطلب للمرأة من الإعداد تعليماً وتربية، وما يؤهلها للقيام بهذه الرسالة الكبرى"(١).

وتوالى رواد الإصلاح من بعد رفاعة الطهطاوى، فتبعه على مبارك الذى عمل على توسيع دائرة التعليم وأنشأ دار الكتب، وجاء بعده السيد جمال الدين الأفغانى الذى دعا إلى تحرير الأمة الإسلامية من الاستعمار الأجنبى، والإمام الشيخ محمد عبده، وهو أحد كبار الدعاة إلى التجديد والإصلاح فى العالم الإسلامى، وكانت دعوة الشيخ تتجه إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى، وقاسم أمين الذى دافع عن قضية المرأة وطالب بحريتها ودعا إلى سفورها ونادى بوجوب تعليمها ومشاركتها فى الحياة العامة، فكانت قضية المرأة من أهم قضايا العصر آنذاك، وكانت محور رُوَّادِ الإصلاح فقد ساءهم ما كانت عليه المرأة من حال، وما وصلت إليه من وضع اجتماعى، ويصف بعض الرحالة الأجانب شيئاً عن أحوال المرأة فى مصر آخر القرن الماضى يقول:

إذا سارت فى الشارع بدت وكأنها خيمة متحركة على حد تعبيرهم، بيتها فى الأغلب لا نظام فيه ولا ذوق، لقد فقدت بحكم الجهل المسيطر على عقلها لذة الاهتمام بالبيت، الطعام أهم ما يشغل بالها، أما الأبناء ففى بيوت سَرَاةِ التجارة متروكون للخدم والإماء ينشئونهم على خير ما فى أخلاق العبيد من ذلة وخوف، والبيت كله فى الأغلب والأعم مرجل يغلى بالضرائر، وسلاح الطلاق مُسَلَّطٌ عليه، والأبنـــاء غير الأشقياء يعيشون فى مَعْمَعَةٍ، وعلى قمة الجبل رجل مفروض عليه أن ينفق وأن يحكم، فهو ينفق حسبما يروق له، ويحكم بقدر ما يستطيع"(٢).

---

(١) عصر التنوير – د./ نبيل راغب –ط ١٩ –ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

(٢) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص٩ – ط. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع.

لذلك لم يكن من السهل أن تظل بارقة أمل على حياة المرأة فى هذه البيئة إلا إذا تجاوزنا البيئات المصرية الصميمة إلى بيئات كانت وافدة، دخلت الحياة المصرية وتأقلمت بها وأصبحت منها، ثم كونت معالمها الجديدة وكانت بيوت النساء الشركسيات والتركيات والكرديات تكون الغالبية الكبرى من بيوت القاهرة، وفى بعض هذه البيوت بدأت بعض طلائع النور على غير هدى ودون جذور تربطها بالتربة رباطاً وثيقاً، كانت بيوتاً إسلامية ولكنها كانت عربية بقدر ومصرية بقدر أقل، ففى هذه البيئات نشأت امرأة "**كعائشة التيمورية**" شاعرة تفخر بها النساء فى عصرها داعية لإصلاح أحوال المرأة وعلى هامش هذه البيئة عاشت بعض كاتبات وافدات من الشام أمثال زينب فواز العاملى، وبحكم الدين المشترك واللسان المشترك، استطاعت هذه الأمثلة أن تؤثر تأثيراً ما على سطح الواقع الكثيف، فنادت بالتحرر وأنشأت الرسائل ولكنها لم تحمل رسالة ولم تعلن دعوة إصلاح كما أعلنتها "ملك حفى ناصف" لذلك كان ظهور "ملك" أديبة وداعية للإصلاح من صميم البيئة المصرية حدثاً مهماً فى تاريخ المرأة، ظهرت دعوة "ملك" إبَّانَ دعوة قاسم أمين التى اتسمت بالجرأة فكان لها فيها رأى وكان لها منها سند، لقد دعت "ملك" كما دعا إلى تحرير المرأة وإن سمت التحرر إصلاحاً وسماه هو تحريراً، وكانت نظرة أحوال المرأة ونظرة المجتمع إليها وما يقدمه المجتمع من خدمات أو حقوق، كان كل هذا يحتاج إلى ثورة حقاً فظهرت آفات فى المجتمع كان الاحتلال عاملاً فيها من التواكل والكسل، واختلاف الآراء وتشعب الأهواء والأنانية وانغماس الناس فى ضلالات الخرافات مثل زيارتهم للأضرحة يحجُّون إليها ويتبركون بها، إلى جانب انغماسهم فى أمور الشعوذة والسحر والزار"[1].

ويقول الشاعر حافظ إبراهيم: "السعيدة من النساء من سهلت لها الأقدار فأصبحت تدعى شيخة الزار، فهى تملأ يديها ذهباً، وبيتها نَشَباً، وترفل فى الحرائر،

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين ناصف – ص٩.

ورأس مالها فى تلك التجارة رقية بأسماء بعض العفاريت الطيارة، تدخل على المقصورات فى القصور والمخدرات فى الخدور، فتفتق بطبلها آذانهن، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن"(١).

هذه حال المرأة المصرية فى تلك الفترة، كانت امرأة جاهلـــة بنفسها وبحياتها وبأمور بيتها وأولادها، قعيدة حبيسة بيتها،لا ترى النور، ولا تعلم عن دنياها شىء بحكم التقاليد الموروثة البالية، فكان لزاماً على امرأة مثل "ملك" أن تمسك براية الإصلاح وتلوح بها لتعلم العالم كله بوجود المرأة المصرية وتجعل العالم كله يشهد ويقر لهذه السيدة، بأنها أول رائدة للإصلاح حتى ولو سبقت دعوتها مؤشرات إصلاحية، كانت دعوة "ملك" شاملة ومؤثرة، تقول دكتور درية شفيق: "أنه برغم الستار الكثيف الذى فرضته التقاليد على المرأة المصرية للحيلولة دون تمتعها بحقوقها، فقد استطاعت إحدى المصريات أن تحطم هذه القيود وأن تظهر فى آفاق مصر، وأن تحمل الرجال على الإشادة بفضلها وعلمها هذه السيدة هى: "ملك حفنى ناصف" أديبة تفخر النساء فى عصرها وداعية للإصلاح يشار لها بالبنان"(٢).

حياة باحثة البادية ملك حفنى ناصف نشأتها وملامح شخصيتها:

الميلاد والنشأة:

وُلِدَتْ "ملك حفنى ناصف" عام ١٨٨٦م، فى بيت متواضع من بيوت الطبقة الوسطى، لأب متعلم درس بالأزهر الشريف ودار العلوم وعين مدرساً للغـــة العربية، ثم عمل بعد ذلك سكرتيراً فنياً ومترجماً للقوانين، ونظراً لثقافته وعلمه الغزير شغل وظيفة تدريس مادة "الإنشاء القضائى" بمدرسة الحقوق، وكان هو أول مدرس لها، إلا أنه لما شرعت الحكومة فى تعميم المحاكم الجزئية بالمراكز وأعلنت

(١) ليالى سطيح – حافظ إبراهيم – ص ٤٢ – ط. مطبعة الوحدة ١٩٥٩م.
(٢) النساء ولعبة السياسة – حنفى المحلاوى – ص ٧٤ – ط. الدار المصرية اللبنانية.

عن امتحان فى القوانين على أن يعين من يجتازه فى سلك القضاء، تقدم حفنى ناصف لهذا الامتحان واجتازه بتفوق وعين فى المناصب القضائية، ثم نقل بعدها إلى وظيفة مفتش أول للغة العربية بوزارة المعارف، ولحفنى ناصف فضلٌ فى ضبط المصحف الشريف ورسمه بالصورة التى هو عليها حالياً، ويُعَدُّ حفنى ناصف من أبرز الشعراء الذين بعثوا النهضة الشعرية فى مصر من مرقدها فى العصر الحديث"(١).

عرف "حفنى ناصف" بروح المرح والدعابة وسماحة الطبع ووفرة العلم، وكان مرحه لا يفارقه حتى فى أحلك موضوعات التفكير وورثت "ملك" عن أبيها روح المرح والمداعبة كما ورثت ذكاءه وطبعه المتسامح "وورثت أشياء أخرى ورثت مزاجاً صفراوياً عصبياً، وورثت صوتاً عطوفاً مؤثراً كان عوناً لها فى ميدان الخطابة، وورثت ضحكة سمحة رنانة وصفتها الأدبية "مى" بأنها فضية كرنين البُلُّورِ على البُلُّورِ(٢).

التعليم والتثقيف: دخلت "ملك" المدارس وتفوقت وساعدها أن والدها أدرك أهمية تعليم الفتيات، فحضها عليه فإذا هى تبرز فى هذا الميدان، بدأت دراستها فى المدارس الفرنسية، ثم التحقت بالمدرسة السنية وكانت أول من فتح الباب لمن بعدها فى هذه المدرسة بالذات، إذ كان الآباء لا يخاطرون بإدخال بناتهم فى هذه المدرسة إن لم تضطرهم الحاجة المادية، فكانت "ملك" أول فتاة تنال شهادة إتمام الدراسة

(١) قمم ورموز على طوابع البريد – حسن محمود الشافعى – ص١٨٤ – ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(٢) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص١٣.

الابتدائية، وكانت الأولى على أول دفعة لبنات جنسها، وكانت "ملك" تستعين فى دراستها الإنجليزية "بالناظرة" وهى أديبة من سيدات التربية(١).

لقد كان للتعليم أثرة وتأثيره على "ملك" فقد نجحت وتفوقت وتعلمت وعلمت غيرها حيث كلفت بالعمل الشاق، وهو التدريس لبنات جنسها، والسعى لتحقيق مصالحهن، سواء فيما يخص المواد العلمية أو المنزلية أو التربية الخلقية وآداب المجتمع، فهى الرائدة الأولى فى رد اعتبار المرأة إليها وتحسين حال الأسرة والمجتمع.

الريادة والجهاد والزواج: بدأت "ملك" جهادها الأصغر فى دائرة بيت أبيها، فكانت تجتهد فى أثناء أجازتها الصيفية بإعادة تنظيم البيت، وتجديد كل ما يلزمه، وإكمال ما ينقصه، ثم ثنت جهادها فى دائرة أوسع قليلاً وهى دائرة صديقاتها فكانت تحبو الفتيات بخالص الود والنصح، ثم وسعت دائرة جهادها تلقاء الاتجاه العام فكانت تَؤُمُّ بيوت صاحباتها ومعارفها، وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهن إلى المدرسة السنية، "وبذلك دخل هذه المدرسة فى عهد "ملك" كثيرات ممن كان أهلوهن يُبْقُونهُنَ فى البيت، أو يؤثرون إرسالهن إلى المدارس الأجنبية التى كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئاً من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأن نشأة أجنبية"(٢).

وفى هذه الفترة هوت "ملك" شعر المراثى فقرأت على والدها الكثير وشغفت بالمتنبى فأخذت عنه اعتداده بالنفس مما قوى شخصيتها، وفى كنف والدها تربت ملكاتها الأدبية، وكتبت "ملك" الشعر ونشرته فى الصحف وهى فى الثالثة عشرة من عمرها، وقويت ميول "ملك" الوطنية تجاه وطنها، وأنها لو استطاعت أن تستخلص

(١) نفس المرجع السابق –ص٤٢ وشاعرات عربيات – روحية القلينى – ص٢٧ – ط. الدار القومية للطباعة والنشر.

(٢) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حنفى ناصف – ص٤٦.

حياتها كلها لدعوة أخرى غير دعوة تعليم المرأة وإنصافها لكانت هذه الدعوة هى "الوطنية والقومية".

تزوجت "ملك" عام ١٩٠٧م، من "رئيس قبيلة الرماح" وهو: عبد الستار الباسل، وكان رجلاً عصرياً متعلماً يجيد اللغات الأجنبية، وانتقلت معه "ملك" إلى البادية التى حددت تفكيرها ورسمت لها خُطَىَ الإصلاح، واقترن اسم البادية "بملك" فسميت "بباحثة البادية" اشتقاقاً من بادية الفيوم،وجدت ملك فى زوجها رجلاً مغايراً لما كانت تتمناه فى رفيق عمرها، فقد كان يمارس حق الرجال فى الظلم والاستبداد فالمرأة عنده كأنها تحفة ثمينة يفخر بأن يحوزها، ولم تدرك ملك عيوب زوجها إلا بعد الزواج ومما زادها قهراً أن عرفت بأن له سابقة زواج قبلها، وأن له ابنة من زوجته الأولى، وأن زوجته هى ابنة عمه، وتقول "ملك" عما عانته مـــن آلام: "المرأة تقاسى تهديد الطلاق، والأمر من هذا والأعنف ألماً هو أنها أحياناً كثيرة تقاسى الضُرَّ، والضُرُّ هو اسم فظيع مملوء وحشية وأنانية، تكاد أناملى تقف عنده"(١).

وجدت "ملك" أن المرأة المصرية فى تلك الفترة أحق بالدعوة للإصلاح فقد رأت المرأة وهى ذليلة أيا كان عنوانها زوجة، أو أماً، أو بنتاً ليس لها شأن أو اعتبار ولا رأى لها خاضعة للرجل؛ لأنه رجل؛ ولأنها امرأة، ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل، واختصت بالتحِجُّبِ واختصت بالجهل، واستعملها الرجل متاعاً للذة يلهو بها متى أراد، ويقذف بها فى الطرق له الحرية ولها الرق، له العلم ولها الجهل، له العَقْلُ ولها البَلَه"(٢).

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حنفى ناصف – ص١٩.

(٢) الإنسانية والتمدن –جورجى أنطون – ص ١٣٨ –ط. دار المعارف، ونقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام –أحمد إبراهيم الهوارى –ص ١٠٥ –ط. الثانية ١٩٨٦م، وفى الحياة والأدب – سلامة موسى – ص ٧٩ – ط. المجلة الجديدة.

رأت "ملك" حاجة قومها للإصلاح فصاحت صيحة لا يزال يرن صداها، وظلت "ملك" تقول الشعر وتخطب وتكتب المقالات ناشدة الإصلاح، فعلت ذلك فى وسط ما يزال رجعياً وتفوقت ولم ينل منها شيئاً انتقاد الناقدين وتعنت المنحرفين، كانت شديدة الحب لقومها، شديدة الغيرة على دينها، ودرست "ملك" المرأة المصرية فى جميع أطوارها وأصابت فى لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية، وكذلك رأت ببصيرتها أكثر طرق الإصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعى، وقد قالت ملك فى كتابها "النسائيات : اللهم إنى اتبعت طريقاً وسطاً بين الظلام الدامس الملقى إلى التهلكة، وبين الضوء الشديد الخاطف للأبصار".

حركة ملك الإصلاحية فى مصر :

ذكرنا أن "ملك" تهيأت لدعوتها الإصلاحية، ومما ساعدها على هذا ما اتصفت به من مقومات الرياسة والزعامة إلى جانب الذكاء والعقل وإنكار الذات والعلم كما توفرت فيها الجرأة والاعتزاز بالنفس، فقامت ترتاد الميدان فى تَؤُدَةٍ وملاينة، فقد أدركت "ملك" أن التعليم والتربية والتهذيب هم أساس الدعــوة للإصلاح، ورأت أن تعمل لدعوتها بأسلوب عملى قوى، فكانت تطوف ببيوت الأهل والأصدقاء لتحض على تعليم البنات، وقد أدركت "ملك" خطورة محاربة الإصلاح باسم الدين، فأعربت عن تعصبها للدين والإصلاح معاً، فالأديان لم تُخْلَقَ لجلب البؤس، وإنما خلقت لإسعاد البشر، وأخذت تبين بالحجج الباهرة القوية كيف أن الإسلام دين كل صلاح، وكيف يرتكب الخطأ والتخلف باسمه، وكانت فى تعصبها للإسلام رائعة"[1].

كانت هذه دعوة "ملك" فى الإصلاح، فقد اتبعت من سبقوها فى هذا المجال أمثال الشيخ محمد عبده، والشاعرة عائشة التيمورية، فرغم أن عائشة دعت إلى

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص ٢١.

الإصلاح إلا أن دعوة "ملك" أشملُ وأعمُّ شملت كل الجوانب والاتجاهات إلى جانب مصريتها الأصلية واحتكاكها بطبقات المجتمع المصرى وشعورها بآلامه ومتاعبه.

كانت "ملك" أول من كتبت مقالاتها ونشرتها فى "الجريدة"، وأول من خطبت على السيدات، كما قامت بعدة أعمال اجتماعية إصلاحية تهدف من ورائها إصلاح المجتمع ونذكر منها:

أ) أسست اتحاد النساء (التهذيب)، وكان يضم كثيراً من سيدات مصر والبلاد العربية الأخرى وبعض الأجنبيات، وكان هذا الاتحاد مصدر توجيه للسيدات والفتيات ومركز إشعاع لهن.

ب) أسست جمعية للتمريض على غِرارِ الصليب الأحمر، وتأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل.

ج) أسست مدرسة لتعليم السيدات التمريض، وأسستها فى بيتها وعلى نفقتها الخاصة وكانت تسند رئاسة هذه المدرسة لغيرها لتبعد نفسها عن المنافسة.

د) وضعت برنامجاً لمشغل الفتيات وملجأ للمُعْوزَاتِ[1].

كانت "ملك" هى أول من مثلت نساء عصرها، فى المؤتمرات خاصة المؤتمر الذى عقد عام ١٩١١م، والذى كان يرأسه "رياض باشا" وحضره ممثلون حقيقيون لجميع أنحاء القطر المصرى لبحث شتى الإصلاحات، ورأت ملك أن المؤتمر تناول جميع القضايا، وشمل مناحى الإصلاح جملة وتفصيلاً، فيما عدا شئون المرأة فسارعت إلى تقديم مطالب النساء، وتحدثت باسم نصف الأمة ونذكر بعضاً من هذه المطالب.

- طالبت بوجوب تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى إجبارياً لجميع الطبقات.
- طالبت بتعليم البنات الدين الصحيح أى تعاليم القرآن الكريم والسنة.

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص ٢١.

- طالبت بتخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله.
- طالبت بإطلاق الحرية فى تعليم العلوم العالية لمن يريد.
- طالبت باتباع الطريقة الشرعية فى الخِطبة فلا يتزوج اثنان قبل أن يتلاقيا بحضور مَحْرَم(١).

كما سعت "ملك" لإعلاء ذكر المرأة المصرية بين الأمصار عن طريق التراسل بينها وبين بعض القيادات النسائية فى العالم، فراسلـــت أميرة "بهويال" المسلمة بالهند، وراسلت السيدة "خالدة أديب" التركية والتى أصبحت فيما بعد أول وزيرة فى البلاد الإسلامية، وسافرت إليها ملك فى تركيا وتذاكرت وإياها فى رفع شأن الأمة الاسلامية، وعن طريقها نشرت سلسلة مقالاتها فى جريدة "جون تورك" "تركيا الفتاة"، كما راسلت الكاتبة الإنجليزية تشارلوت كمرون واستقبلتها فى باديتها بالفيوم، وكتبت عنها مسز تشارلوت فى كتابها "شتاء امرأة"، قالت فيه عن ملك: "إنها لتناقشك فى دَارْوِنْ وسِبِنْسِرْ بشكل يدعو إلى الإعجاب"(٢).

وعلى الرغم من كثرة ما كتبته باحثة البادية من رسائل تشرح فيها رؤيتها الإصلاحية فى شتى جوانب الحياة، وبالأخصِّ فيما يتصل بشئون المرأة المصرية خاصة والشرقية عامة، فإن أكثر هذه الكتابات قد ضاعت ولم يحفظ لنا التاريخ منها سوى أقل القليل، لقد كانت ملك حفنى ناصف بحق صورة مشرقة، وكان نتاجها الأدبى شعراً ونثراً خير وسيلة تخاطب به العقول، وتفتح عن طريقه الأذهان، وتحارب السلبيات، وتُقَوِّم الإيجابيات.

النثر الفنى لباحثة البادية غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية:

أولا: **المقال فى نثر باحثة البادية**:

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص ٦٠.
(٢) نفس المرجع – ص ٦٠.

نهضت الصحافة فى عصر إسماعيل بلغة الكتابة، وحرر النثر من السجع المتكلف والإمعان فى طلب المحسنات البديعية فتناولت "ملك" موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة، ومشكلات الشعوب وقد وجدت ألواناً متعددة وجديدة من النثر وأدباً ينبض بالحياة وبالحرارة، واتسعت موضوعات النثر فكانت واسعة الأفق وتناولت مشكلات الحياة وما يهم الشعوب، وما يبعث على اليقظة والنهضة، فكان النثر السياسى الذى يعرض القضايا السياسية، وكان النثر الأدبى المتعدد فى فروعه وفنونه، والنثر الاجتماعى الذى يمثل أهم القضايا الاجتماعية وكيفية عرضها وإيجاد حلول إيجابية لها، ووصف الدواء للداء وبخاصة فى تلك الفترة التى زخرت بالعديد من ملامح التخلف فى الفكر والسلوك الاجتماعى، فضلاً عن امتلائها بالأمراض الاجتماعية المُعَوِّقة للحركة والنشاط الحضارى كالجهل والفقر والمرض(١).

هذا إلى جانب الصراع الذى احتدم على أرض مصر بين أنصار القديم والجديد خصوصاً فيما يتصل بالتقاليد الجديدة الوافدة من المجتمعات الغربية، والتى شاعت بصورة واضحة فى سائر طبقات المجتمع، والتى تمثلت فى الملبس والزينة وانتشار الملاهى والمراقص والسمر الليلى، وعادات لم يكن للمجتمعات الشرقية بها سابق عهد، وفى إبان هذه الفترة كتبت العديد من المقالات التى صدرت عن كبار الرواد فى فن كتابة المقال من أمثال الشيخ عبد الرحمن الكواكبى، ومصطفى كامل، وتنوعت المقالة ما بين سياسية وإصلاحية اجتماعية ودينية، وكتب قاسم أمين مقالاته التى طالب فيها بإصلاح حال المرأة المصرية ونادى بتحررها من القيود المُكَبِّلة بها، وأوضح أن بيتها هو أول قيد لها فعليها أن تتحرر وتخرج من سجنها إلى العمل ولم يجد حرجاً من اختلاطها بالجنس الآخر، وهنا قامت الدنيا وخاصة بعد إصداره كتابيه "تحرير المرأة، والمرأة الجديدة"، فقد أحدث هذان الكتابان ثورة عارمة

(١) فن المقال "تطوره وأنواعه فى العصر الحديث" – د. صفوت يوسف زيد – ص ٥٦ – ط – مطبعة التركى بطنطا.

وخاصة بين المثقفين، فلم تكن الأذهان مهيأة لتحرير المرأة بمثل هذه الصراحة، وفى مثل هذه المباغتة التى جابه بها البلاد المصرية والعربية الإسلامية والتى أثارت نسور الرجعية من أوكارها إثارة جعلتها تنهش إصلاح شئون المرأة نهشاً يكاد أن يقضى عليها قضاءاً مبرماً.

لقد تنبهت "ملك" أن الطَّفْرَةَ من المحال فأخذت تبدأ بما هو ألزم للإصلاح مما لا يتعارض والدين أو التقاليد، وقالت الأديبة مى فى ذلك:

" أنها كانت تسير بتحفظ بين تشعب الأفكار الجديدة، والآداب المستحدثة وكلما خطت خطوة التفتت إلى الوراء لتثبت أنها تابعة السبيل، الذى يربط الأمس بالغد، وكلما جاءت بتبديل فى النصوص الإصلاحية حاولت شَبْكَهُ فى قالب الاعتدال فلقيت إقبالاً لم يلقه صاحب مذهب جديد"

وهذا ما جعل الشيخ حسين والى وكان وكيلاً للجامع الأزهر الشريف يقول: "لقد وفق الله لهذه الأمة سيدة كاتبات هذا العصر، وأستاذة المربيات فى مصر فوضعت هذه المجالات التى ستكون فاتحة تاريخ جديد للتربية الصحيحة القويمة التى أساسها الإصلاح، إصلاح للمرأة والرجل"(١).

لقد وضعت "ملك" لنفسها مذهباً ومنهجاً تسير عليه فى كتاباتها منهجاً وسطياً ولذلك كتب لمقالاتها النجاح والقبول؛ لأنها " أدركت أن الكلمة وسيلة العمل الأدبى تملك طاقة هائلة من الإيجابية الفعالة فى عناصر الحياة الإنسانية، كما كانت الكلمة وراء أحداث هامة أدارت دفتها وسيرتها فى اتجاهات معينة ذلك أن الكلمة تستمد قوتها الحيوية من الحياة نفسها، من صميم القلوب النابضة بالحياة معتمدة على

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص ٥٠.

الرصيد الضخم من العواطف الحارةَّ، والإنجازات المتعددة والانفعالات المتنوعة التى هى ثمرات الحياة الإنسانية"[1].

كتبت "ملك" أربع وعشرين مقالا ونشرتها فى "الجريدة" التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت أجمد لطفى السيد، الذى جعل من "الجريدة" منبراً للحرية وموقعاً للإصلاح، ولقد جمعت "ملك" مقالاتها فى كتابها "النسائيات".

ومقالات "ملك" يمكن تصنيفها إلى مقالات أدبية اجتماعية لما كان لها من دور وأثر فعال فى المجتمع، وذلك بالتعبير عن قضاياه ومشكلاته المتنوعة، وتسجيل مسيرته وتخليصه من بعض علله وأمراضه، التى أطلت برأسها منذ وجود الاحتلال وحتى قيام الثورة، فكان ذلك الحدث بمثابة إذكاء لروح الوطنية والغيرة فى صدور الشعراء وكتاب المقال الذين انبروا لتلك العلل والآفات، يحاربونها ويقومون ما أعوج من أوضاع اجتماعية خاطئة وفاسدة، وكانت "ملك" واحدة من هؤلاء الكتاب وقد حملت بين جنبيها روح المقاومة لكل ما هو فاسدٌ ووضيع، وتعايشت مع الحياة وأحداثها، فكانت "ملك" تملك القدرة على إثارة المتلقى والتأثير عليه تأثيراً عميقاً، فقد صورت قضايا المجتمع تصويراً دقيقاً وصلت إلى شغاف القلوب و نفذت إلى أحاسيس الناس ومشاعرهم، وذلك نتيجة احتكاكها بالمجتمع ولمس مشكلاته وقضاياه واستطاعت "ملك" أن تتناول فى مقالاتها أكثر قضايا المجتمع.. .. فكتبت عن الزواج ومشاكله وسلبياته وإيجابياته، وعن الحجاب والسفور، وعن تربية البنات التربية الصحيحة فى البيت والمدرسة، وعن تعدد الزوجات، أو الضَّرائر، وعن سن الزواج، وعن بعض المبادئ الخاطئة التى تتعلمها المرأة بطريقة خاطئة فتنشأ معها، وعن مساوئ الرجال وازدرائهم بالمرأة وعن جمال المرأة وكيفية الحفاظ على هذا الجمال وعن بغض أقارب الزوج أو الأسرة، وعن سرعة الغضب والتهديد بالفراق، وعن الكلفة بين الزوجين.

(١) مجلة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد الثانى – ١٩٨٩م.

ولنذكر نماذج من هذه المقالات لنعرف هدفها وغايتها من إصلاح حال المرأة والمجتمع، ومن هذه المقالات: مقال بعنوان "**رأى فى الزواج وشكـــوى النساء منه**"، وهذا المقال كان رداً على ما كتبه مدير المجلة فى مقاله "بناتنا وأبناؤنا" وفيه يتعجب من أمر النساء وشكواهن من الزواج على الرغم من قلة زواج الرجل باثنتين، رغم أن هذا الأمر كان وارداً منذ سنوات لاحقة، فرأت "ملك" أن تجيـــب عن هذا التساؤل فكتبت مقالها وقالت فيه: "نعم ذلك صحيح لا ريب فيه، ولكن له أسباب أنتجت تلك النتائج أولاها: أن الفتاة كانت إذا شبَّت وجدت والدتها تعيش مع ضرة أو أكثر، ورأت خالتها وعمتها على تلك الحال، وكذلك صويحباتها ومعارفها، فلم يكن ذلك بالشىء الغريب، فإذا جاء دورها وتزوجت من رجل له زوجة أخرى، وجدت أنه لم يخرج عن المألوف، وأنه تابع لعادة أهل عصره ومصره، فلم يكن يحسن بها أن تُبدِىَ شكواها من أمر عادى يأتيه كثير غير زوجها، وكذلك كانت التربية غير ما نراها اليوم، فبنات العصر الحالى حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات، فأصبحن لا تُرضهين الكسوة والطعام فقط كأحد خدم المنزل، ولكنهن يُقدَّرْنَ اليوم السعادة الزوجية أكثر من ذى قبل، ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما"[(١)].

فالكاتبة فى مقالها ذكرت الأسباب التى جعلت الزوجة صامتة لا يحرك لها ساكناً إذا أراد زوجها الزواج بأخرى، وعللت بأن هذه عادة مألوفة فى وقتها، ولكن فى بقية مقالها ذكرت أسباباً قوية جعلت من "الزواج" شكوى للجنسين وأن مرجع التصدع والشقاق والانهيار الأسرى يرجع إلى الرجل أكثر من المرأة إذ قالت:

(١) من مقال: "رأى فى الزواج وشكوى النساء منه" – ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات نشرت فى كتاب "النسائيات" – ص٢٠،٢١ – جـــ١و٢ ط– دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

"إن كثرة الخلافات والتذمر يرجع إلى الرجل وحده، فرجال الأمس على جمعهم بين زوجات متعددات كانوا أتقى منهم اليوم، فرجل العصر (الشاب والكهل) نراه يتبحبح بأن له خليلات وأنه بجماله ورشاقة قده، واهتزاز أعطافه يُسْبِي ربَّاتِ الحجاب بما فيهن من المحصنات، وقد يتقول حكايات لا أصل لها فى هذا الموضوع مما تندى له الجباه، ولعمرى فإن الجمع بين زوجتين على ما فيه لأحسن من التَّهتُّك، وانتهاك حرمة الدين وإيلام نفس المرأة وتنغيص حياتها، بالله أليس لها قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور، وقد أصبح رجالنا بفضل هذا التفرنج يعدون من لا يشرب خمراً جهاراً، ومن لا خليلة له يترامى على قدميها أو تترامى على قدميه أنتيكة فى عرفهم فللَّهِ درُّهُم"(١).

أرادت الكاتبة من كتابة هذا المقال أن تجعل الرجل يرى نتيجة إهماله للزوجة واستهتاره بمشاعرها وتَسيُّدَه عليها وظلمه لها بحجة الحضارة الزائفة والمدنية الغربية والتقليد الأعمى، ولقد وقفت "ملك" موقفا محايداً من الجنسين فلم تتحامل على الرجل فقط فتعدد عيوبه وتذكرها، بل ذكرت أن هناك بعض السلبيات التى وجدتها فى المرأة وكانت سببا مباشراً فى سقوطها وانهيارها مما أدى معه إلى انهيار الأسرة وتصدعها إذ تقول:

"ليت هذا السلوك القاصم لروابط الألفة بين الزوجين تقف عند هذا الحد، بل له عواقب أوخم من التذمر، وأسوأ من البغض، وهى شطط المرأة بباعث الانفعال والحزن، أو الانتقام والخبث، وخروجها متبرجة فى الطرقات أو وقوعها فى مهواة الرذيلة،وسقوطها السقوط الأبدى والعياذ بالله، وفى تلك الحال يلام الرجل لأنه شجعها على ما أتته بما يأتيه هو وهى تعتقد أنها بشر مثله، ويحق لها من الحرية

(١) من مقال "رأى فى الزواج وشكوى النساء منه" ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب "النسائيات" – ص ٢١.

الشخصية بقدر ما يحق له فضلاً عن اعتقادها بأنه قدوتها يبعث ظلم الرجال وسوء سيرتهم النساء إلى السقوط فى الرذيلة فيسقطن إلا من عَصَمَ ربُّك"[١].

وفى نهاية المقال نجدها تذكر غايتها من كتابته إذ تقول: "يا قوم تداركوا الأمر قبل فواته، فإن كنتم ترضون لنظام بيوتكم بالاختلال، وللثقة بينكم وبين أزواجكم بالضياع ولأمتكم بالتأخر،فاستمروا على فسادكم، وإن كانت فيكم بقية غيرة وحمية وتحبون وطنكم كما تدعون فأصلحوا أحوالكم، تصلح حال نسائكم، ونقُّوا ورد بيوتكم من شوك الهمِّ، وسنُّوا سنة صالحة لأبنائكم وبناتكم من بعدكم يكن لكم أجرها إلى يوم الدين"[٢].

فغاية الكاتبة من هذا المقال هو إصلاح حال المجتمع الذى فيه إصلاح للوطن وأن هذا الإصلاح لا يكون إلا إذا عرف كل من الرجل والمرأة دورهما وواجبهما تجاه الأسرة التى هى فى حقيقة الأمر نواة للمجتمع.

ومن أهم القضايا التى تناولتها الباحثة فى كتاباتها "**قضية الحجاب والسفور**" فهى قضية قامت من أجلها حرب قلمية عنيفة وضعت أوزارها، فلم يفز فيها المحافظون على القديم ولا الأحرار، لقد أرادت "ملك" أن تبين رؤيتها تجاه هذه القضية وخاصة بعد أن اتهمها البعض بأنها تدعو إلى السفور فقالت فى مقالها رداً على من دعا المرأة إلى ترك الحجاب دفعة واحدة وخروجها سافرة لتواكب الحضارة وتساير التمدن:

"نساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزى، وما يقعن فيه بحكم الطبيعة والتغيير الفجائى من أسباب البلاء، وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين، وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلا قليلاً إلى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه.

(١) من مقال "رأى فى الزواج وشكوى النساء منه" ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب "النسائيات" – ص٢٢.

(٢) نفس المقال– ص ٢٣.

وتشير "ملك" إلى تَعجُّل هذه الفكرة وعدم استيعابها لدى نساء هذا العصر، وذلك يرجع إلى استماعهن بدون تعقل لهذه الأمور، التى يكون مرجعها سَيِّئاً على المرأة وأيضاً على الرجل الذى لا يُقَدِّر ولا يحترم المرأة على غير العادة المألوفة لديه إذ تقول:

" كيف تأمرنا الآن بالسفور ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها العبارات الوقحة، ويرشقها بنظرة فاجرة، وذاك ينضح عليها من ماء سفالته حتى يتصبب عرقها حياء، فجموع رجال مثل جموعنا الآن لا يصح بحـــال أن يوكل إليه أمر امرأة وتترك عرضة لسبابه وقلة حيائه، وجموع نساء كنسائنا الآن لا يفهمن ما لا يفهمه الرضيع فيصبح سفورهن واختلاطهن بالرجال بِدعةً لا انتهاء لشرها"(١).

وفى نهاية المقال وضحت "ملك" رأيها فى هذه القضية وهو رأى يحمل بين طياته النصيحة والتوجيه والإرشاد فقالت: "رأيى أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشء وأصلحوا أخلاقكم بحيث تصير جموع الأمة مهذبة، ثم اتركوا شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة.

فقد حقق المقال غاياته وأهدافه ومنها التدرج فى الأخذ بالأمور والتَّمهُّل وأن الطفرة من المحال، وأن التغيير يكون بالإقناع والتعقل وقبلهما التعليم فهو أســـاس كل شىء فعن طريقه تكون التربية الصحيحة والأخلاق القويمة التى تحقق المثالية المطلوبة فى المجتمع.

وكتبت "ملك" سلسلة مقالات متعاقبة تحت عنوان "ما ذنبنا" رداً على ما كتبه حضرة الخانقاه فى "الجريدة" بشأن تبادل إرسال النشء والمصاهرة بين الترك والمصريين فذكرت "ملك" رأيها فى مدارس الراهبات قائلة:

"هذه الفئة الجاهلة الدعيَّة بالعلم،هى ولا شك فئة خريجات مدارس الراهبات وإن إحداهن لتسمعك تاريخ فرنسا، ولا تكاد تأخذ نفسها فى سرعة الإلقاء، وإذا

(١) من مقال "الحجار والسفور" – ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب آثار باحثة البادية – مجد الدين حفنى ناصف – ص١٩٠.

سألتها عن "عمر بن الخطاب" أو "صلاح الدين الأيوبى"، وأضرابهما من حماة الإسلام قالت: لا أدرى.

وقد أَرَّقَهَا أن تزوجت فتاة مصرية مسلمة من إنجليزى فثارت "ملك" لقوميتها وعروبتها ودينها، فكتبت مقالاً إلى الآباء وعلماء الدين قائلة:

"أين رجولتكم أيها الآباء؟، أنشئوا لبناتكم مدارس إسلامية محضة، وربوهن التربية الإسلامية فى مدارس البنات التابعة للحكومة وأجبروا مدارس المبشرين على أن تخصص معلمين مسلمين يدرسون الدين الصحيح للمسلمات بينما تكون أخواتهن المسيحيات فى حصص الدين المسيحى، وانشروا التعاليم الإسلامية ومكارم الأخلاق فى بيوتكم"(١).

ثم تتوجه "ملك" إلى علماء الدين فى حَنَقٍ قائلة: " أغيثونا أيها العلماء وانفضوا عنكم غبار النوم، فقد بلغت الروح التلاقى، وما لهذا البلاء من دافع إلا بإذن الله، وإذنكم إن شئتم، أيها السادة العلماء عليكم وحدكم تقع تَبِعةُ هذه البدعة السيئة"(٢).

لقد حقق المقال غاياته وأهدافه من إصلاح ووعى للثقافة والتعليم وخاصة التعليم فى المدارس، فقد اعتبر البعض الدين تخلفاً والتمسك بتعاليمه وقواعده خرقاً للمدنية والحضارة، فباحثة البادية ناشدت رجال الدين حيث يقع عليهم التبعة وطالبتهم أن يمارسوا حقوقهم المشروعة فى الدفاع عن عقيدة الإسلام لكل ما هو غريب دخيل عليها، وأن يفوضوا دراسة الدين فى المدارس وخاصة فى مدارس الراهبات.

وكانت "ملك" سابقة عصرها فى كل شىء حتى فى مقترحاتها التى اقترحتها فى المؤتمر الذى عقد "بهليوبوليس" وقد جمعت هذه المقترحات والتى وصلت إلى عشرة فى مقال ونشرتها فى مجلة "الجريدة" ونذكر منها ما يلى:

---

(١) من مقال "مدارسنا وفتياتنا" – ملك حفنى ناصف –ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات – ص٣٢.

(٢) من أدباء الإسلام المعاصرين – على الجمبلاطى –ص ٥٣ –ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الاقتراح الأول: جعل التعليم الأولى إجبارياً، وتكثير المجَّانية على قدر الإمكان فى مدارس البنات الموجودة، أو إنشاء غيرها لهذا الغرض، فإن كثيرات من الفقيرات يحب أهلهن أن يعلموهن، فلا يجدون لهن فى المجانية مكاناً وتكون النتيجة تركهن بلا تعليم أو تهذيب، فيَشْبُبْنَ جاهلات ويكن أعضاء شُلاًّ فى جسم الأمة العربية.

الاقتراح الثانى: تعليم البنات فى جميع المدارس حكومية أو أهلية الدين تعليماً صحيحاً؛ لأن الديانة ألزم ما يكون للبنات لما يغرسه فى نفوسهن من الأخلاق القويمة.

الاقتراح الثالث: تكثر المستشفيات والصيدليات للمرضى من الرجال والنساء والأطفال، ويكون فى كل مركز من مراكز المديريات، وكل قسم من أقسام المدن.

الاقتراح الرابع: السعى إلى تقليل عدد الزوجات بغير داع ماسٍّ بقدر الاستطاعة فإن شقاء النساء، واختلاف الاخوة الناشئين من هذه العادة وما يتبع ذلك من الشقاق، كل ذلك يدهور حال الأسرة فى مهاوى الفناء الأدبى.

الاقتراح الخامس: تعليم المرأة المصرية كل ما يلزم لجنسها من الصناعات الضرورية كالتفصيل والتطريز، والقيام على تربية الأطفال والخدمة حتى لا تحتاج الوطنيات إلى غيرهن من الأجانب[1].

هذه نصف الاقتراحات التى كتبتها "ملك" فى مقالها وكانت تهدف كلها إلى إصلاح حال المرأة وحال المجتمع وأن هذا الإصلاح لا يكون إلا عن طريق التعليم

(١) من مقال "عشر وسائل لترقية المرأة المصرية" ملك حفنى ناصف، ضمن مجموعة مقالات فى آثار باحثة البادية – مجد الدين حفنى ناصف – ص١٢٧ وما بعدها.

والتثقيف، ونشر الوعى الصحى بين طبقات المجتمع والحفاظ على الرابطة التى تربط بين الزوجين حتى لا يحدث الشقاق والانهيار فى المجتمع.

ونلاحظ مدى اهتمام "ملك" بتلك الرابطة حتى أنها كتبت سلسلة مقالات عن الزواج ونشرتها فى "الجريدة" لما وجدته من ضرورة اجتماعية لتصلح ما وجدته من سلبيات وآفات وعادات سيئة متوارثة ومن هذه المقالات مقال لها بعنوان: "الزواج يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن" قالت فيه:

"طريقة الزواج فى مصر طريقة مُعَوَّجَّةٌ عقيمة نتيجتها فى الغالب عدم الوفاق بين الزوجين، يقيم الرجل معالم العُرْس أياماً وليالى، ويتكبد مصاريف جمة لعروس لم يرها عمره، ولم يتأكد من حسن أخلاقها أو جمال نفسها، إنما سمع عن بياضها أو مالها من الخاطبة التى تصف حَسْبَ نصيبها من نوال العروس وأهلها، فإذا أجزلوا لها العطاء صورت ابنتهم للشبان الخاطبين فى صورة "بلقيس" بما لها أو "شيرين" بجمالها، وما هى إلا أحبولة يقع الفتى فيها فلا يلبس أن يصير بعلاً للفتاة، أما على الحب منه أو الكره، فإذا سعد طالعها اتفقا قلباً وقالباً، ورضى كل بالآخر رفيقاً له وصفت لهما الأيام هذه حال قل أن يصل إليها الزوجان، ومن تمت لهما كان ذلك أُحْدُوثَة فى بنى قرابتهما وعند الجيران، أما البائس إذا قدر له أن يعاشر حمقاء أو جاهلة أو مسرفة، أو ما شابه ذلك فيا ويحه، كذلك الفتاة إن فوجئت بَبَعْلٍ مُدْمِنٍ أو خليع فاسد السيرة فيا طول ما تقاسى من العناء"(١).

استطاعت "ملك" أن تبرز مشكلة اجتماعية خطيرة فى المجتمع المصرى، وهى طريقة الزواج فى تلك الفترة والتى لا تتم إلا عن طريق "الخاطبة" فهى التى ترى وتقيم وتقرب بين الطرفين، وإن لم يريا أحدهما الآخر ولو مرة واحدة، ويقام الزواج ويتكهن كل منهما بصفات وطبائع وأخلاق الآخر، وإن دل هذا على شىء

(١) من مقال "الزواج يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن" – ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات – ص٣٧.

فإنما يدل على التدليس والغش؛ لأن أحياناً كثيرة ما تكون المعلومات زائفة، وهذا لا يتفق وديننا الإسلامى، وفى نهاية المقال تُجْمِلُ الباحثة أسباب شقاق الزوجين وعدم الوفاق بينهما فتقول بسبب:

أ- جهل أحد الزوجين بالآخر.

ب- زواج مختلفى الطباع كعالم وجاهلة، وبالعكس أو غنى وفقيرة

ج- الطمع فى الغنى بغير النظر فى الأخلاق.

وإننى أرى أن هذه الأسباب كلها شِعَابٌ لأصل واحد هو عدم الحكمة والتفكير والتدبير، فإذا روعيت شروط الحكمة والتحرى قبل الزواج سيقل هذا الشقاق المخيم على البيوت المصرية، الهادم لمعنى الزوجية وإننى أميل إلى ما قالته "ملك": "خير للفتاة والفتى أن يعيشا أعزبين من أن يتزوجا بثالث، أيضاً هو البؤس والعذاب"(١).

وتنتقل الكاتبة إلى موضوع هام هو: **"تعدد الزوجات"** كتبت فيه:

"إنه لاسم فظيع تكاد أناملى تقف بالقلم عند كتابته، فهو عدو النساء الأَلَدُّ وشيطانهن الفرد، كم كسر قلباً وشوش لباً، وهدم أسراً، وجلب شراً، وكم من برئ ذهب ضحيته، وسجين كان أصل بَلِيَّتِهِ، واخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا، وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض، إنه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية، كم أحرج رجلاً وعلمه الكذب، وأفسد عليه خلقه، وكم بذر مالاً كان يعده البعض رزقه، وكم حفظ قلب والد على ولد، وكم علم الوشاية والحسد، فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد

(١) من مقال "الزواج يا للنساء منه ويا للرجال منهن" – ملك حفنى ناصف – ص٤٠.

الزفرات، يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عرسك ولكنه صَهَرَتْهُ نار الحزن فظهر سائلاً"(١).

بينت "ملك" غايتها من كتابة هذا المقال، فجعلت له محورين أحدهما يقع على الرجل والثانى على المرأة، فأما الضرر الواقع على الرجل يكون فيه مفسدة للمال؛ لأن الرجل فضلا عن تحمله أعباء أسرتين وقيامه بلوازمهما، يرى كل زوجة من الاثنتين تجتهد فى التبذير لتعجزه عن الإنفاق، وفيه مَفْسَدَةٌ للأخلاق؛ لأن زوج الضرائر دائماً يحتال ليطمع كل واحدة فى حبه، وهذا يكفى فيه المداهنة والتطبع.

وتبين ملك أثر الزواج الثانى على المرأة إذ تقول: "المرأة إذا بُليت بالضَرَّة انطفأ سراج بهجتها والتهبت مكانه نار حقدها، وذَوَىَ غُصن قَدِّها، وزرعت محله بذور شرورها، فإن لم تك تقية وسوس لها الشيطان وعلمها أساليب الانتقام والكيد، وكثيراً ما دست المرأة السم لزوجها أو لضرتها أو لابن ضرتها، فكان القضاء عليهم جميعاً، وكثيراً ما عمدت للوشاية بها عند زوجها"(٢).

لقد صورت "ملك" أحاسيس المرأة التى تتزوج رجلاً متزوجاً بأخرى ووصفت هذا الزواج بالبلاء الذى تعانيه وتكابده فتقول فى نهاية المقال: "الزواج باثنتين مفسدة لقلوب النساء؛ لأن الأولى تكرهه بلا شك لإغضابه إياها وجرحه لعواطفها، والثانية لا تصافيه مطلقاً ما دام متعلقاً بغيرها فهو "المنبَتُّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى".

لقد عرضت "ملك" أمر الزواج باثنتين ضمن مقترحاتها فى المؤتمر الذى عقد فى "هليوبوليس" ووضعت شروطاً منها:

---

(١) من مقال "تعدد الزوجات" ملك حفنى ناصف– ضمن مقالات نشرت فى كتاب النسائيات– ص٤١.

(٢) من مقال "تعدد الزوجات" – ملك حفنى ناصف – ص٤٣.

"ألا يتزوج الرجل على امرأته ولا يطلقها إلا بإذن من المحكمة الشرعية كما ذهب فريق من السلف، فإذا ارتأت المحكمة أنه يستطيع العدل بين الزوجتين والإنفاق عليهما فتصرح له، وإذا رأت أنه يتعذر عليه العيش سعيداً مع امرأته فلتصرح له بطلاقها، والأولى أن يعمل بقاعدة التحكيم المنصوص عليها فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾، أما الفوضى السائدة الآن فى الزواج والطلاق فضررها لا يخفى على أحد من المسلمين، وهذا لا يرضى به عقلاء الأمة، يبيع الرجل ويشترى، ويحلف ويمزح وبين ذلك تكون الزوجة طالقاً بلا ذنب جنته، ويكون هو مطلقاً بلا إرادة فى الفراق، وحاشا للإسلام ثم حاشا للإسلام أن يكون قصده من الطلاق تبديد شمل الأسرة"(١).

وتتابع "ملك" سلسلة مقالاتها عن "الزواج والشكوى منه والمشاكل الناتجة عن بعض الزيجات نتيجة لسلبيات توارثها المجتمع ففى مقالها "**سن الزواج**" كتبت تقول فيه:

"إنى لا أوافق على بعض الأطباء الذى كتب فى الجرائد مرة أن سن البلوغ يجب أن يكون هو بعينه سن الزواج إذاً باللهِ ماذا تفهم فتاة فى الثانية عشرة من عمرها عن معنى الزواج، وماذا تعلم من أمور البيت، وماذا تعمل لو رزقت بأولاد؟، إنى أكاد أتصورها تموت هى وإياهم إن لم يكن فى النفاس ففى التربية، وقد ثبت بالتجربة إن أكثر اللاتى يتزوجن صغيرات جداً يُصَبْنَ بأمراض الأعصاب، إن الزواج ليس بالشىء الهين ولا هو بالهزل، تظن الفتيات الصغيرات والراشدات أيضاً أن الزواج معناه ضرب الموسيقى، ونصب السرادق ليلة العرس، ولبس الحرير والماس والمباهاة بالأثاث، ليس هذا هو الزواج يا سيدتى الصغيرة، بل هو إرضاء للزوج وحسن القيام على ماله وتدبير بيته، ومؤاساة أهله وتربية أولاده، ورئاسة خدمه"(٢).

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص١٢٨.

(٢) من مقال "سن الزواج" – ملك حفنى ناصف – ص٤٦.

استعرضت "ملك" تفاقم مشكلة الزواج فى سن صغير من الجانبين، جانب الفتاة، وجانب الفتى، وهما لا يدريان شيئاً عن الزواج ومسئولياته، فالفتاة الصغيرة إذا وصلت إلى سن البلوغ سرعان ما يزوجها أبوها، إما لفتى فى سنها أو يكبرها قليلاً، وإما يزوجها كهلاً كبيراً فى سن أبيها، فعدت "ملك" هذه الزيجة بمثابة صفقة ظنها الأب أنها رائجة ولكنها فى حقيقة الأمر هى صفقة خاسرة، وتصرح "ملك" فى نهاية مقالها بأمر هذا الزواج غير المتكافئ فتقول:

"من نكد الدنيا على الفتاة قاصرة كانت أو رشيدة، أن تتزوج من فتى صغير تابع لأبيه، وتكتفى من الزواج بأنه ابن فلان الغنى، فطالما سمعنا بأن اختلاف الكنات أو سوء سير الفتى أدى إلى طرده هو وزوجته من بيت أبيه، فماذا يفعل إن لم يكن تعلم علماً، أو صنعة تساعده على المعيشة، لا جَرَمَ أن يذوقا وبالاً، أو ينتجعا بيت أهلها، وتبقى هى وهو وأولادهما عالة عليهم إلى أن يشاء الله، ومما يشقى الزوجين أيضاً مختصاً بالسن أن يتزوج هَرِمٌ شابت مفارقه بشابة فى مقتبل العمر أو بالعكس فتى عجوز، فإن مَشْرَبَ الشباب يختلف عن مَشْرَبِ الهرم، فضلاً عن أن النسل الناتج عن أبوين بعيدى فُرْجَة السن الواحد عن الآخر يأتى فى الغالب ضعيفاً أو لا يأتى"(١).

وكتبت "ملك" عدة مقالات عن "مبادئ النساء" وجعلت من هذه السلسة من المقالات غاية تهدف من ورائها إلى إصلاح ما فسد فى المجتمع نتيجة أفكار بالية وتقليد أعمى ساد طبقات المجتمع فى تلك الفترة اخترنا من هذه المبادئ أربعة:

المبدأ الأول بعنوان: "عدم الثقة بالزوج أو الغيرة العمياء" قالت فيه:

"أول مبدأ تحفظه المرأة الجاهلة عند زواجها هو عدم الثقة بزوجها مهما أكد لها براءته من تهمة الخيانة، ومهما كان الباعث له على تغيبه عن منزله فنراها إذا ذهب زوجها لديوانه، ودعاه صاحب له إلى الغذاء معه فلم يَؤُبْ لمنزله إلا بعد تراها تتكدر وتثور زوابع غضبها، وتتهمه إما بزواج جديد، أو بمصاحبة غير شرعية،

(١) من مقال "سن الزواج – ملك حفنى ناصف – ص ٤٧.

تراها إذا دعى للسهر مع إخوته فتأخر قليلاً بالليل تسأله أين كنت، ولا تصدقه إذا قال الحقيقة، تراها إذا كان ممن ينتدب فى تحقيق قضية أو البحث عن جناية، وتغيب يومين أو ثلاثة، تتهمه بالتغيب عند زوجته الثانية، فمبدأ عدم الثقة هذا يسبب ما تخافه المرأة، ويصبح الخيال حقيقة، فلا يلْتفِتُ الزوج إلى ما تقوله امرأته، ولا يلبث أن يتزوج أو يخال لأنها علمته أن هذا الأمر مستطاع له، وسهلته على أذنيه وروحه بكثرة ذكره له وشدة الضغط تولد الانفجار"(١).

استطاعت "ملك" أن تكتب مقالها بحس المرأة الأنثى فنفذت إلى مشاعر وأحاسيس المرأة التى لا تثق فى زوجها منذ اللحظة الأولى من الزواج، وأن هذا راجع إلى دروس ومبادئ خاطئة استقتها ممن سبقوها فى تجربة الزواج، وأن هذا المبدأ خاطئ سرعان ما ينهى الحياة الزوجية؛ لأن الثقة بين الزوجين هى البنية الأساسية لقيام حياة زوجية سعيدة وهذا ما أوضحته "ملك" فى نهاية مقالها، إذ قالت:

الثقة ما أحلاها بين الزوجين وحتى وإن كانت على غير أساس؛ لأن الزوجة إذا تحققت من انحراف زوجها عن الصراط السوى فلتنبهه أولاً باللطف والمحاسنة، فإذا لم تفلح ملاينتها فماذا تعمل؟ إما أن تبقى معه وإن كانت ترجو عيشه وتؤمل تحسنه، وإما أن تنفصل عنه، وهذه إحدى الكبر، فإذا فضلت معاشرته بسبب حبها له أو لارتباطهما بأولاد، أو لانقطاعها من الأهل والاخوة، فأولى لها وقد تحتَّم عيشها معه أن تفرض أنه مخلص لها، وأنه لا يتغيب إلا لأشغال نافعة لمستقبلها ومستقبل أولادها"(٢).

استطاعت "ملك" أن تحقق غايتها من هذا المقال فكانت بمثابة الموجهة والمرشدة والمصلحة والحريصة على إقامة حياة زوجية سعيدة بين الطرفين، وقد وصفت الدواء لهذا الداء الذى فيه شفاء لعلّةٍ خطيرة تصيب الحياة الزوجية وهى علة "الخيانة وعدم الثقة".

---

(١) من مقال "مبادئ النساء" المبدأ الأول عدم الثقة بالزوج أو الغيرة العمياء" ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات –ص٥٢.

(٢) من مقال "مبادئ النساء – المبدأ الأول عدم الثقة بالزوج" – ملك حفنى ناصف ص٥٥.

وكتبت "ملك" عن المبدأ الثانى وهو بعنوان "**بغض أقارب الزوج**" قالت فيه:

"نساء اليوم غير نساء الأمس وأذواقهن تختلف باختلاف الزمن ولكن إذا تحتم أن تعيش فتاة الجيل مع حماتها ذات الفكر القديم فما العمل؟ المخاصمة والعناد لا تجديان نفعاً، فضلاً عن أنهما من صفات الطبقة الدنيا، أما النساء المهذبات فلا يبعد أن يختلفن فى الرأى ولكنهن يصرفن الخلاف حالاً، ولم تسمع واحدة من الأخرى ما يغيرها عليه"(١).

وتذكر الباحثة فى مقالها بعض السلبيات التى ينتج عنها هذا البغض، ومنها التنازع على رئاسة البيت بين الزوجة والحماة والتنازع على قلب الزوج فتقول:

"تنازع الرئاسة على البيت أحد سببى البغض، والسبب الآخر تنازع الرئاسة أيضاً ولكن على قلب الرجل، ألا فلتَطِبْ نفساً كل امرأة غيور فإن حب الزوجة المكتسب الظاهر غير حب الأهل الغريزى الدفين، كل له صفة خاصة تجعله لا يقلُّ أهمية عن الآخر، وهما مختلفان لا تدل كثرة أحدهما على قلة الآخر فهما منفصلان تمام الانفصال.

وضحت "ملك" فى مقالها سبب هذا البغض لأهل الزوج وقدمت النصيحة للزوجة بأن تَغُضَّ الطرف عن حماتها، وأن حبها لزوجها يغاير حب حماتها له، وأن المخاصمة والمعاندة ليستا من صفات المرأة المهذبة، وأن ثَمَّةَ النزاع بين الزوجة والحماة على رئاسة البيت من أكبر المشاكل التى تؤدى إلى انهيار البيت فتقول لها ناصحة مرشدة: "الزوجات المتمدينات يجب أن يخفضن قليلاً من غُلَوَائِهنَّ، ولا يبخلن على الحاكمة القديمة فى البيت بشىء من السلطة؛ لأن من تعود الحكم يصعب عليها أن ينتزع منه، وأمهات الأزواج أولى لهن أن يتشبَّثِن كثيراً بآرائهن العتيقة، فكل زمن يقتضى إصلاحاً مغايراً لما قبله"(٢).

(١) من مقال" بغض أقارب الزوج" – ملك حفنى ناصف – ص٥٦.

(٢) من مقال "بغض أقارب الزوج"– ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات – ص٥٨.

استطاعت "ملك" أن تحقق الغاية من هذا المقال وخاصة فى عرضها لهذه القضية الاجتماعية التى لا تنتهى عند زمن أو وقت محدد بل هى مستمرة وباقية ببقاء الزمن وبنيت الكاتبة خطورة هذه المشكلة إذا تفاقمت فقد تؤدى فى بعض الأحيان إلا انهيار الحياة الزوجية وعرضت حلاً لهذه المشكلة هو حب الزوجة لزوجها ولأهله واحترامها لحماتها وتقديرها لها.

وكتبت عن المبدأ الثالث وهو بعنوان: "**المباراة فى الإسراف**" إذ قالت فيه:

"إذا تزوجت الواحدة منا كلفت أباها ما لا طاقة له به كى لا ينقص جهازها عن جارتها أو قريبتها، فإذا قدر فنعم القادر لا انتقاد عليه، ولكن إذا عجز فمن خَرْق الرأى أن يستدين ليكسب فخراً كاذباً أطول مدته يومان وإذا تزوجت لم تشأ ترى صاحبتها تشترى عشرة أثواب، وهى لا تشترى إلا أربعة مثلا وكيف تجد عند جارتها خمس خادمات فيهن الأوربيات وليس فى بيتها إلا واحدة مصرية، وهى تكفيه، فهى دائما تزن نفسها بميزان الغير لا تفتأ تقلده مهما فعل فإذا لم يكن لها ميراث رفيع خاص بها يصرف فى مَأْرَبِها، فإن هذا يحمله الزوج المسكين ولا راحم له"(١).

بينت "ملك" فى مقالها أن المغالاة فى الإسراف والبذخ والثراء لمن المبادئ الخاطئة التى تنشأ عليها الفتاة وتتعلمها وتمارسها إذا تزوجت ووضحت "ملك" أن هذا يعد من العيوب والأخطاء التى تعجل بفشل الحياة الزوجية فنجدها تقول فى نهاية المقال ناصحة ومرشدة: "لتعلم المرأة أنها وكيلة الزوج فى ماله وبيته، والوكيل يجب أن يكون أميناً تقياً، وأن التكالب على المباراة صفة مصغرة للنفس"(٢).

وآخر مبدأ من مبادئ النساء هو: "سرعة الغضب والتهديد بالفراق" قالت فيه:

(١) من مقال "المباراة فى الإسراف" – ملك حنفى ناصف – ص٥٩.
(٢) نفس المقال – ص٦٢.

"عادة التهديد بالفراق شائعة عندنا شيوعاً هائلاً مستهاناً به كثيراً، فكما ترى الرجل يحلف بالطلاق لغير داع، كذلك ترى المرأة تنهزم من بيت زوجها لأوهى الأسباب، يهدد بعضهما البعض بالانفصال فى عرض كلامهما يريد أحدهما بث خوف الفراق فى نفس الآخر ليخشاه وما من زوجين مرتبطين برابطة ما إلا ويخشيانه، ولكن فاتهما أن ذكره ساعة الغضب مما يثير العواطف، ويعلو بالنفس إلى سماء عزتها، وكيف يرضى إباء المهدد وغيظه محتدم أن لا يطلب ما يهدد به ويستخف بالعقاب وإن عظم فينسى الحقيقة والصالح ويدوس العُقْبَى تفاديا من ضَيْمِ نفسه المكاره الهائجة"(١).

استطاعت "ملك" أن تحقق الغاية من هذا المقال فذكرت النتيجة الواردة من جراء الغضب الذى يتبعه تهديد بالفراق ويعقبه انفصال بين الزوجين وتؤكد "ملك" فى مقالها أنها لا تلوم طرف على حساب طرف آخر بل الطرفان مسئولان مسئولية كاملة عما وصلا إليه وهذا نص ما قالته فى نهاية مقالها:

"إما أن تقرر المرأة أنها ستعيش مع زوجها وتشاركه السراء والضراء فتحتمله ولا تحنق عليه لصغير الهَفَوات، فلا يلبث أن يندم إذا كان أســـاء لها ويعتذر لها، ويغفر أحدهما غلط الآخر، ويزيلان أثر كل خلاف بينهما فيعيشان سعيَدَيْن، ويتحتم على الزوجة أن لا تسرع الخُطَى نحو منزل أهلها بل تظل فى منزلها تديره"(٢).

واستكملت باحثة البادية كتابتها للمقالات التى وجدت فيها خير وسيلـــة للدعوة إلى الإصلاح، إصلاح ما وجدته معوجاً وفاسداً، بالياً فأرادت من خلال

(١) من مقال من مبادئ النساء "سرعة الغضب والتهديد بالفراق"-ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات – ص٦٣.

(٢) نفس المقال السابق – ص ٦٥،٦٦.

كتاباتها أن تحقق غايتها فى هذا الإصلاح وأن تجد لقلمها استجابة ولدعوتها عقولاً متفتحة وأنفس صافية تستجيب لندائها.

وكما كتبت عن مساوئ النساء كتبت أيضاً عن مساوئ الرجال حتى يصلح الطرفان مساوئهما وتستقيم الحياة بهما، وعددت هذه المساوئ فذكرت ظلم الرجل، وطمعه وازدرائه بالمرأة، ومن مقال لها عن طمع الرجال كتبت:

"أريد مما كتبت فى الجريدة بعنوان النسائيات تخفيف ويلات الزواج على قدر الإمكان، وقد بينت فى مقالاتى السابقة ما يرجع منها إلى المرأة، واليوم أرانى مضطرة أن أكتب عن الرجل؛ لأنه أحد طرفى الزواج، ولأنه كثيراً ما يظلم ويطغى، ولست أقصد كل رجل على الإطلاق كما أنى لم أقصد كل امرأة، وإنما الكلام على من فسدت أخلاقهم فسببوا شقاء النساء وهدموا بناء الزوجية".

انقلب الحال وصارت الفتاة بائرة فى سوق الزواج إلا إذا شفع لها غناها عكست آية الإسلام، واستبدلت بها عادة لم تأت فى شرائع النصارى ولا اليهود، وإنما اتبعوها بدعة وضلالاً، ازداد طمع الرجل فملك عليه حواسه فصار ينام يحلم بالمال، ويقوم يشتغل له ولا عيب عليه فى ذلك، وإنما الذى يعيبه أنه زادت خميرة جشعه فحمض ذوقه، واستحكم معه الطمع فى كل شىء حتى فى عروسه "ماذا عندها" كلمتان، ألفناهما وهما أول ما يفتح به الخاطب، وقد لا يسأل غير هذا السؤال، فأبو العروس الذهب وأمها الفضة، وأخلاقها النحاس، وسمعتها الطين، ومعارفها العقار، متى وجد المال صحت المصاهرة، ولزم الزواج وإلا فتبقى الفتاة إلى أن تسن وتدفن معها طيبة قلبها وحسن عشرتها"[1].

استطاعت "ملك" أن تبرز هذا العيب الذى يوجد فى بعض الرجال وهو الطمع الذى يجعله أساس فى الاقتران بالزوجة حتى ولو كانت سيئة السمعة

(١) من مقال "مساوئ الرجال الطمع" -ملك حفنى ناصف -ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات -ص٦٦، ٦٧.

والأخلاق فما دام أبوها الذهب، وأمها الفضة فهى خير الزوجات، ناقشت "ملك" هذه القضية الهامة بموضوعية شاملة كل الاتجاهات والمحاور كى تحقق غايتها الإصلاحية من كتابة هذا المقال فذكرت مساعدة الزوجة لزوجها إذا وجدته فى ضائقة فهى لا تضن بمالها عليه، أما كونه يتعدى على حقها ويطمع فى مالها دون وجه حق فهذا هو الطمع الذى تَعُدُّهُ الباحثة "عيباً فى بعض الرجال" فتقول فى آخر مقالها:

"لا أعد الرجل ذا مروءة ونخوة، وهو يبيع حلى امرأته، ويجردها حتى فى حال عسره؛ لأن لا معنى لرجولته ووصف نفسه بالقوة والنشاط واعتكافه على الكسل، لا يعذر الرجل على مد يده لمال زوجه إلا إذا كان له من ضعفه وعدم اقتداره على العمل مبرر".

ومن المساوئ الأخرى إلى ذكرتها باحثة البادية فى مقالاتها: "الظلم"

وقصدت به الباحثة ظلم الزوج لزوجته، فقالت فى مقالها: "من الأنباء ما يترك فى أعماق النفس أثراً لا يزول، ومن تلك الأنباء ما أثر فى تأثيراً خاصاً وسأُقصُّه فيما يلى:

"كنت يوماً عند صاحبة لى، فسألتها عن سيدة كان لى بها معرفة قديمة، ولم أرها منذ زمن بعيد، فتنهدت وأجابت بلهجة المحزون بأن تلك السيدة فى أشد ما تكون من الأسى، وأنها لفرط حزنها وكثرة بكائها قد حل بها السُّقْم، وذلك لأن زوجها عقد على امرأة أخرى وستُزَفُّ له قريباً، فأخذ منى العجب مأخذه، فرأت صاحبتى دهشتى فقالت: لم تعجبين من ذلك الخبر؟ أليس كثير الحدوث عندنا مألوفاً، قلت: نعم، ولست أعجب من حدوثه فى ذاته، وإنما العجب فى أنه حدث لتلك السيدة، وهى كما تعلمين من أحسن ما يكون عليه النساء من الخلق، وعلى جانب غير قليل من الجمال والعلم، وقد كنت أسمع عنها أنها فى راحة مع قرينها، وقد رأيتها بعينى تشتغل فى بيتها ولم يكن ينقصه شىء، من النظافة والترتيب، ولها من أطفال صغار،

فماذا يريد الرجل فوق ذلك كله؟ تربية، وعقل وملاحة، وإنجاب فقالت محدثتى: "إن ولدى تلك السيدة توفيا فى شهر واحد، وهذا ما حدا بالزوج إلى البحث عن أخرى، وقد خطب فى نفس الشهر الذى فقد فيه وليده.. .. فَيَا لَقَسْوَةِ الرجال!"(١).

استطاعت "ملك" أن تجسد صورة ظلم الرجل من خلال رؤيتها لهذه القصة فقد جعلت من الرجل ديكتاتور فى مشاعره وتسلطه وتحكمه فى المرأة وصورت المرأة كأنها دمية لا حيلة لها ولا قرار، ولهذا باتت مستسلمة لقرارات الرجل، ولكننى لا أتفق مع "الكاتبة" فى هذا التجنى على الرجل، فأنا أرى أن هذا الأمـــر وهو زواج الرجل على زوجته لا يعد ظلماً لها؛ لأن هذا حق من حقوقه المشروعة التى أقرها له الشرع، ويكون الظلم البائن من أمر الرجل إذا لم يكف مؤونة بيته ويحقق العدل بين الزوجتين هنا يعد الرجل ظالماً.

وتابعت "ملك" سلسلة مقالاتها عن مساوئ الرجال فكتبت مقالاً عنوانه: "**الازدراء بالمرأة**" قالت فيه:

"يظهر احتقار الرجل للمرأة جلياً فى أفعاله وتصرفاته، إذا حزن يوماً لا يكاشفها بما يؤلمه، وإذا نوى الشروع فى عمل يعدها غريبة عنه، فـــلا يخبرها يخرج من البيت، ولا يعود إليه إلا لأمر ضرورى، فمؤانسته وأسراره للخِلَّان أما الزوجة فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة، أى ازدراء للمرأة وعبث بحقوقها أشد من أن تخرج كلمة من فم الزوج ساعة غضبه، فتفرق بينهما تشتت ملاءمتهما، وأى أمل فى مستقبل مظلم لا تدرى متى ينهار بنيانه إن الدين لم يسمح بتعدد الزوجات والطلاق هكذا من غير شرط، كما يفعل الآن رجالنا، وإنما جعل لهما شروطاً وقيوداً لو اتبعت، لما أن منها النساء البائسات"(٢).

---

(١) من مقال "مساوئ الرجال –الظلم" –ملك حفنى ناصف –ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات –ص٧٠،٧١.

(٢) من مقال "مساوئ الرجال –الازدراء بالمرأة"– ملك حفنى ناصف –ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات –ص٧٤.

استطاعت "ملك" أن تبرز صورة ازدراء الرجل للمرأة فى العديد من مواقف الحياة فهو يعاملها كأنها جماد لا عقل لها ولا تفكير ولا إحساس، حتى إذا ضاق به الزمن وألمت به الشكوى فإن شكواه وحزنه يكونا له وحده لا يَبُثُّها لواعجه وآلامه ظناً منه أنها لا تفهم ولا تقدر ولا تستوعب ما يقوله أو يشعر به.

وهذا منتهى الازدراء، ولكننى أرى أن الكاتبة "قد وقفت موقفاً محايداً من الجنسين فلم تنحاز لجنس على حساب الآخر، ولكنها بينت بعض الأسباب التى ينتج عنها هذا الشعور وهو عدم التعليم فجعل المرأة وعدم معرفتها لأمور الحياة وتجاربها هى التى تجعلها فى عزلة عن العالم الخارجى فيجدها الرجل تعيش فى عالم وهو فى عالم آخر وهذا ما يجعله منصرفاً عنها بأحزانه وأوجاعه؛ لأنه يعلم أنها لا تبدى رأياً، ولكن الكاتبة استطاعت بحسها الأنثوى أن تبين أن ازدراء الرجل للمرأة ليس فقط لكونها غير متعلمة ولكن لأنه متكبر ومتسلط فنجدها تقول فى آخر مقالها:

" لا أنكر أن لنا عيوباً يجب إصلاحها وأن بعضنا يستحق احتراماً كثيراً أيؤخذ البرىء بذنب المجرم؟، وهل يصح تطبيق القانون إلا على من ثبت إدانته؟ فى اعتقادى أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه، وعلم أن امرأته مساوية له فى جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة الندِّ للندِّ، أو على الأقل معاملة الوصى لليتيم، لا معاملة السيد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذى يشكوه، ولأطاعته حباً فيه لا خوفاً منه، ولا يجهل أن الاستبداد يأتى بعكس المراد"(١).

استطاعت "الكاتبة" أن تحقق غايتها من هذا المقال الذى ناقشت فيه قضية اجتماعية هامة كانت سائدة فى المجتمع فى تلك الفترة قبل تعليم المرأة وخروجها لمجال العمل، فذكرت أن على المرأة والرجل واجبات وحقوق لو عرف كل واحد منهما واجبه ما له وما عليه لساد الاحترام والتقدير بين الزوجين وهذا ما نصت عليه

(١) من مقال" مساوئ الرجال – ازدراء الرجل بالمرأة".

الكاتبة فى نهاية مقالها إذ قالت: "أما والله لو أرانا رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون، فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم، ولنا قلوباً تشعر كما يشعرون فإذا أرادوا إصلاحنا، فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون"(١).

وتناولت باحثة البادية فى إحدى مقالاتها قضية هامة وجدتها أنها جديرة بالاهتمام والعرض، وهى: تسلط الأب وبث الخوف فى نفوس أبنائه ظناً منه أن هذا يحقق له الهيبة والاحترام، فتقول فى مقالها وعنوانه '**لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن فى أسرته:**" لا أحب الرجل يتكبر على أهله وأولاده فيظهر لهم بمظهر الجبار العنيف، ويظن أن ذلك استجلاب للهيبة وهو لا يعلم بما يشعرون، إن الهيبة واجبة فى حد الاعتدال، ولكنها إذا زادت تعدت إلى الخوف، فيفقد الوالد الرحمة على أولاده، ويفقدون هم كثيراً من المحبة والثقة بوالدهم، وتجد أغلب الأطفال يحبون والدتهم أكثر من آبائهم لهذا السبب عينه وهذا السبب من جانب الأب يضعف الأخلاق فى الطفل، ويفسدها إذ يربى فيه الجبن والذل ثم الاستبداد متى كبر"(٢).

استطاعت "الكاتبة" أن توضح أسباب ضياع الرجل تأثيره الحسن على أسرته إن كان أباً أو زوجاً، وقد عالجت هذه القضية فنجدها تقول فى نهاية هذا المقال:

"ألا فليعلم الأباء والأزواج أن السلطة التى يطلبونها فى منازلهم يكفى منها أن يقلدهم أبناؤهم وتتشبه بهم فيها زوجاتهم وبناتهم وتخشينهم على البعد والقرب، وأن الأسرة الواحدة يجب أن تكون تامة الامتزاج، مرتبطة بالحب الصحيح فلماذا يضيعون الحب الطبيعى بقسوتهم وجفائهم، ولماذا لا يبثون روحهم فيمن حولهم من بنات وأخوات، ولماذا لا يجعلون لهم تأثيراً حسناً فى أسرهم"(٣).

---

(١) من مقال: "مساوئ الرجال – ازدراء الرجل بالمرأة ملك حفنى ناصف –ضمن مجموعة مقالات فى كتاب النسائيات –ص ٧٥.

(٢) من مقال "لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن فى أسرته" –ملك حفنى ناصف –ص٨١.

(٣) من مقال" لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن على أسرته" –ملك حفنى ناصف –ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات –ص٨٢.

لقد اهتمت "ملك" بالمرأة وقضايا المجتمع اهتماماً كبيراً، فلم تترك شيئا إلا وقد تناولته فى مقالاتها حتى الحديث عن جمال المرأة وكيفية الاهتمام بهذا الجمال والحفاظ عليه كتبت فيه باحثة البادية مقالات عنه ونذكر جزءاً من مقال لها بعنوان "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر" كتبت فيه:

"المرأة أبشع ما تكون حين تشرب الخمر، وقد سوى هذا الداء بين الطبقات العالية من النساء بدعوى أنه من كماليات التفرنج، وتقلدهن فيه الباقيات تشبهاً، وتتبجح النساء الآن فى الأعراس بطلب الكؤوس والأقداح، وزجاجات الخمر، إذ تشربن بلا احتشام ولا يلبثن أن يتمايلن ويهذين، إن السَّكْرَى لا تعى ما تقول، ولا ما تفعل وقد يجرها الخمر إلى شر أنكَى من الهذيان، وأن المتتبع لسير نسائنا ليدهش من كثرة الفساد بين الطبقة العليا، منهن وهى تعدى كالجرب غيرها من الطبقات، أين وازع الدين؟ أين زاجر العقل والآداب؟، يا قوم لا تَغُرَّنَّكم زخارف المدنية وربوا بناتكم تربية إسلامية"(١).

استطاعت "ملك" أن تبرز فى مقالها بعض المساوئ التى كانت تتبعها النساء فى تلك الفترة ومنها شرب الخمر والتبغ وأن هذه المساوئ غريبة على المرأة العربية، وخاصة "المصرية" فهو تقليد أوربى أعمى قلدت فيه المرأة المصرية المرأة الغربية بدافع التفرنج والمدنية، ولم تعبأ بتقاليد وعادات نشأت عليها بل عدت هذه التقاليد ضرباً من التخلف والرجعية حتى ولو أضرَّ هذا التقليد بصحتها وجمالها، فنجدها تقول فى نهاية مقالها ناصحة مرشدة:

"أما الضرر الصحى من التبغ والخمر،فلا يقل عن مثله الاجتماعى، فقد أوضح الأطباء مفعوله، وبينوا مقدار (النيكوتين) السام فى كل لفافـــة (سيجارة) وكيف أنه يضر بالصدور والعيون، ويفسد الشهية للطعام، أما الخمر فكفى أنها تقطع الكبد وتفسد العقل"(٢).

(١) من مقال "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر" ملك حفنى ناصف – "النسائيات" –ص٩٩.
(٢) من مقال "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر – ملك حفنى ناصف – ص١٠٠.

وكتبت "ملك" عن كيفية المحافظة على جمال المرأة حتى تبدو دائماً نشطة فى أعمالها رشيقة فى قدها قادرة على الحركة والسير والعمل فتبدو دائمة الجمال أمام زوجها".

فقالت فى مقالها وعنوانه: "**جمال السيدات والرياضة البدنية**":

"إن المشى والنزهة ليكسبان علماً وتجربة فضلاً عما يؤثران فى الصحة وتنقية الدم، وما يخلفانه من النشاط فى الأعضاء لمساعدتهما الجسم على إخراج فضلاته المحترقة، فكم فى الطريق من منار للرحمة ومن نافع لتعليم الأطفال وليست الفضيلة دروساً تلقى على الآذان وتحفظ باللسان، وإنما هى فواعل تؤثر فى النفس فتكسبها صدق العزيمة على رد هجمات السوء، وتُحبِّب إليها الحسن من الخصال وكم فى المنتزهات من دروس صامته لجمال الكون وتسبيح الخالق والإيمان بما أنزله، وكم فيها من شياطين للشعر والموسيقى النفسية توحى للنفس ما توحى من جمال وحكمة"(١).

استطاعت "ملك" أن تبرز بعض المقومات الطبعية التى تجعل من المرأة نموذجاً فريداً من الجمال ومن هذه المقومات "الرياضة" فقد وجدت "ملك" من نساء عصرها نساء بدينات لا تُبدى الواحدة منهن اهتماماً إلى الرياضة أكثر من اهتمامها بنوعية الطعام الذى تعده وتقبل عليه وخاصة فى تلك الفترة التى كان يرى فيها البعض أن البدانة والسمنة للمرأة من سمات جمالها وقد تغافلن عن الأضرار الصحية التى تنتج عن هذه السمنة المفرطة فضلا عن انصراف الزوج عن المرأة البدينة، ولهذا وجدت الباحثة مدى الحاجة كى تطلع المرأة على سر الاحتفاظ برشاقتها وجمالها وقدمت لها النصيحة خاصة عندما قالت فى نهاية مقالها: "نصيحتى للسيدات

(١) من مقال "جمال السيدات والرياضة البدنية"– ملك حفنى ناصف – ص١٠٢.

أن يتركن الزيارات وينزهن أنفسهن فى الخلوات القريبة مع آبائهن وبعولتهن ليستفدن صحة وعلماً وجمالاً"[١].

السمات الفنية لمقالات باحثة البادية ملك حفنى ناصف:

أجادت "ملك" فى كتاباتها لفن المقال، فاتسمت مقالاتها بالبناء الفنى المتكامل فبدت منسجمة متسقة مترابطة من البداية إلى النهاية حتى أنتجت خلقاً فنيا متكاملاً تتمثل عناصر بنائه فى الآتى:

(أ) **المقدمة:** اتسمت مقالات "ملك" بمقدمات عملت على تهيئة الذهن لتدل على أهمية الموضوع وجدارته بالمعالجة الفنية، وجدوى هذه المعالجة بالمبادرة الذكية التى تثير من خلالها انتباه القارئ، وتحرك مداركه ليتوجه نحو مقدمات الموضوع ومعطياته التى توجه نحو الفكرة الأساسية.

فسلسلة مقالاتها التى كتبتها عن الزواج، بدأتها بمقدمة عن طريقة الزواج فى مصر، ووضحت مدى عقم هذه الطريقة التقليدية القديمة والتى تؤدى فى النهاية إلى زواج فاشل يعقبه زواج ثان وثالث، وكان هذا واضحاً فى مقالها "تعدد الزوجات" فاستهلت مقالها بالنفرة من اسم "الضرائر" وذكرت فى مقدمة مقالها ما يبعثه هذا الاسم فى نفوس النساء فقالت: "إنه لاسم فظيع، تكاد أناملى تقف عند كتابته فهو عدو النساء الألد، وشيطانهن الفرد، إنه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية، كم أحرج رجلاً وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه، وكم بذر مالاً كان يعده البعض رزقه، وكم أحفظ قلب والد على ولده، وكم علم الوشاية والحسد"[٢].

---

(١) من مقال "جمال السيدات والرياضة البدنية"– ملك حفنى ناصف – ضمن مجموعة مقالات نشرت فى كتاب النسائيات – ص١٠٣.

(٢) من مقال "تعدد الزوجات" ملك حفنى ناصف – ص٤١.

استطاعت الكاتبة بهذه المقدمة المشوقة أن تعمل على جذب انتباه القارئ من أجل أن يعرف ماهية هذا الاسم الفظيع ولماذا وصفته الكاتبة بهذه الصفة وما الذى يبعثه هذا الاسم فى نفوس النساء وما النتيجة المترتبة التى تعود على الرجل منه.

وقدمت الكاتبة فى مقالها وعنوانه "سن الزواج" بمقدمة علمية عن الأضرار الناتجة عن الزواج فى سن صغيرة وأجابت فى هذه المقدمة عن أسباب الزواج فى سن صغير فى مصر إذ قالت:

"بلوغ الفتيات فى مصر يكون عادة فى سن الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة لجيدات الصحة، بعكس الفتيات فى أوربا والبلاد المجاورة، فإنهن ربما جُزْنَ السادسة عشر أو الثامنة ولم يبلغن، وعليه فلا نقيس سن الزواج عندنا به عندهن"(١).

استطاعت الكاتبة أن تجيب فى هذه المقدمة عن أسباب الزواج فى سن صغير فى مصر عن غيره من البلاد الأوربية والبلاد المجاورة، كما ذكرت فى مضمون المقال بعض السلبيات الناتجة عن هذا الزواج والذى يعجل به الأهل دون دراية كافية من الزوجين عن مسئولية الزواج، فعملت هذه المقدمة على جذب انتباه القارئ للمقال ليتعرف على تفاصيله وجزئياته.

وقدمت الكاتبة فى مقالها وعنوانه "ازدراء الرجل بالمرأة" بمقدمة وصفتها هى بالبيان، ذكرت فيه معنى الازدراء وقدم هذا الشعور الذى يكنه الرجل للمرأة منذ قديم الزمن، فقبل الإسلام كان العرب يئدون بناتهن خشية الإملاق أو العار وظل تشاؤم الرجل وازدرائه بهذا المخلوق "وهو المرأة" باقياً ومستمراً منذ ولادتها حتى وفاتها فتقول فى مقدمة هذا المقال: "المرأة المصرية مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها، نراها يتشاءم منها حتى وهى جنين، فإذا ظهرت "مولودة" تستقبلها الحياة مُقطِّبة، والصدور منقبضة والثغور صامتة، ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تُبدِى ولا تُعِيد، كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى"(٢).

(١) من مقال "سن الزواج" ملك حفنى ناصف – النسائيات – ص٤٥.

(٢) من مقال "سن الزواج" ملك حفنى ناصف – النسائيات – ص٤٥.

وأجادت "الكاتبة" فى عرض مقالها وعنوانه: "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر" بمقدمة افتتحته بالتهليل والتكبير،على جمال المرأة المعنوى فى عفتها وطهارتها، وأنها تبدد هذا الجمال بتقليد أعملى بعيد عن تقاليدنا العربية الموروثة إذ قالت: "الله أكبر ما جمال المرأة المعنوى إلا فى عفتها ووداعتها، التبغ مذهب لتلك الوداعة مُخلّ بصفائها"(١).

واستهلت الكاتبة فى مقالها وعنوانه: "احترام الآراء وآداب الانتقاد" بمقدمة عن رسول القلب إلى الإنسان وهو اللسان والقلب ففيهما تنعكس صورة النفس الإنسانية فهما أشبه بسلك الكهرباء بين ذهن المرء ومن يخاطبهم أو يكتب لهم إذ تقول: "الفضائل والرذائل كامنة فى الأشخاص لا يورى زنادها إلا الأقوال والأفعال بالمتكلم والكاتب، تظهر أخلاقهما جلياً فيما يقولان أو يخطانه، وإن حاولا إخفاءها؛ لأن الطبع غالب، والتطبع سَمَلٌ بالٍ قليلُ الستر، وإن دارى شيئاً تظهر منه أشياء"(٢).

وقدمت الكاتبة فى مقالها وعنوانه: "الكلفة بين الزوجين" بمقدمة شيقة نَوَّهَتْ فيها عن أسباب الكلفة بين الزوجين وخاصة فى الحضر وذكرت أن هذا التكلف لا يقره الإسلام، وإنما هو تقليد أوربى خاطئ اتبعه بعض الأزواج بدعوى الحضارة والمدنية فتقول:

"بين الزوجين الحضريين من أهل مصر تكلُّفٌ لا يتفق مع ما يريده الله لهما من سكون الواحد إلى صاحبه ويَشُذُّ عن ظواهر الطبيعة، وآثارها المرسلة إرسالها من غير تعقيد ولا إيهام"(٣).

وفى مقالها: "**زواج الأختين**" كتبت "ملك" مقدمة اختلفت عن المقدمات السابقة، فقد بدأتها بعرض رسالة وصلتها من إحدى السيدات تعرض فيها مشكلتها

(١) من مقال "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر" -ملك حفنى ناصف – النسائيات – ص٩٨.
(٢) من مقال "احترام الآراء وآداب الانتقاد" – ملك حفنى ناصف – النسائيات – ص٧٥.
(٣) من مقال "زواج الأختين" – ملك حفنى ناصف– النسائيات – ص٨٣.

وتطالبها بحل لها إذ قالت:" وصلنى فى بريد الخيال كتاب ذو بال أثار من النفس أشجانها، واعترض سرورها بأحزانها، وجعلها بين اليأس والإصلاح والرجاء فيه، فتارة أنا متسنمة ذروة الأمل، وطوراً أرانى فى حضيض القنوط، ومعاذ الله أن أستسلم لليأس، وهو معول الحياة، ومعاذ الله أن تسترجعنى الصعوبات عن عهد أخذته على نفسى بينى وبين الله أن أصلح ما أستطيعه من فساد، وما كان لمثلى أن تنكث المواثيق أو تغدر بالوعد مهما كانت وعورة الطريق، وهذا هو الكتاب"(١)، ثم عرض الرسالة. التى وصلتها.

المقدمة السابقة أثارت نفسية القارئ وجعلته يتطلع إلى مضمون الرسالة ليتعرف على مشكلة صاحبتها والتى عرضتها الكاتبة فى بقية مقالها.

واستهلت الكاتبة فى مقال وعنوانه: "وسرعة الغضب والتهديد بالفراق" بمقدمة عن السعادة الزوجية وبينت فيها أنماط عديدة من البشر اعتقدوا فى أنفسهم أنهم حققوا السعادة ولكن الكاتبة، بينت لهم أنهم كانوا يجرون وراء سراب، وأن تحقيق السعادة لا يكمل إلا بالهناء والوفاق بين الزوجين.

ونلاحظ أن ثمة علاقة وطيدة تربط بين المقدمة والموضوع، فقد حرصت الكاتبة فى المقدمة السابقة على تعريف السعادة بالمعنى الحقيقى الذى يضمن قيام حياة زوجية، إذ قالت:

"اتحاد الزوجين وارتباطهما بالحب الصادق هما السعادة الكبرى التى نفتقدها، والتى لا غنى لأحد المتزوجين عنها ولو رأى سعادة أخرى فى غير ذلك، فالمعول الذى يحسب نفسه سعيداً إذا أحرز الملايين، والعالم الذى يغبط نفسه إذا اشتهرت تعاليمه، والسيدة التى ترى هناءها فى اقتناء النفائس، كل هؤلاء مع فرحهم بما وفقوا إليه لا يستغنون عن تلك السعادة الزوجية"(٢).

(١) من مقال "زواج الأختين" – ملك حفنى ناصف– النسائيات – ص٨٧.

(٢) من مقال "سرعة الغضب والتهديد بالفراق" – ملك حفنى ناصف – النسائيات ص٦٢.

نلاحظ أن ما ذكرته الكاتبة من مقدمات لمقالاتها ارتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعات المقالات ولم تحيد عنها، كما جاءت تلك المقدمات متنوعة ومشوقة للقارئ ما بين عرض لمشكلة أو مناقشة قضية من القضايا الاجتماعية أو إجابة لتساؤلات محيرة.

(ب) العرض والأسلوب: تميزت "ملك بحسن عرض لمقالاتها مما يدل على إلمامها بالموضوعات إلماماً جيداً، بجانب معالجتها لكثير من هذه الموضوعات، وتحقيق الغاية المنشودة منها ومن خلال عرضها تسلسلت الأفكار فكانت كل فكرة مرتبة على الثانية فى يسر وسلاسة وتناسق بعيداً عن التناقض والغموض، الذى يؤدى إلى انصراف القارئ عن تتمة المقال.

وقد قال الأستاذ أحمد زكى[1] عن "ملك" : "مَرْحَىَ مَرْحَىَ بملكة فى عالم الإنس بين النساء فأكبرها الرجال؛ لأنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبى الذى كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم فى ميدانى الكتابة والخطابة[2].

ومن المقالات التى استوقفتنى مقالها عن "الحجاب والسفور" نظراً لأهمية الموضوع، فقد عمدت الكاتبة إلى إبراز فكرتها من إثارة هذه القضية، فقد اشتمل المقال على عدة محاور منها: انتقادها لفكرة سفور المرأة وإبطالها للدعاوى الباطلة التى نادى بها الكثيرون فى تلك الفترة، فقد دعا إليها قاسم أمين، ولكن وجدت ملك أن الطفرة من المحال، وانتقلت ملك إلى المحور الثانى، وهو تقسيم طبقات الشعب وفقاً لظروفهم الاقتصادية التى تجعل المرأة فى بعض الأحيان تخرج إلى مجال العمل مما يؤدى إلى الاختلاط بينها وبين الرجل، ومن هنا تفرض الحاجة والباعث للمرأة على الالتزام بالحجاب، ثم تصل "ملك" فى مقالها إلى المحور الثالث الذى تناقش فيه بجدية وحزم بعض فئات الشعب المثقفة الذين نادوا بمنع الحجاب، فتذكر "ملك" فى مقالها أن رفع الحجاب مع عدم كمال أخلاق الرجال سيؤدى إلى مفسدة اجتماعية وتنهى هذه القضية بما انتهى إليه علماء الدين، وهذا ما ذكره الأستاذ

(١) الأستاذ/ أحمد زكى: هو السكرتير الثانى لمجلس النظار.
(٢) النسائيات – ملك حفنى ناصف ص١٥٩.

حسين[١] والى عند قراءته لمقال "ملك" إذ قال: "لقد رأيت كما رأت "ملك" أن خلاف أئمة الدين فى السفور، لا يكون إلا عند أمن الفتنة حالاً ومآلاً، فإن خيفت الفتنة فلا خلاف فى أن الواجب عدم السفور"[٢].

ويقول الأستاذ عبد الكريم سلمان[٣] عندما قرأ مقال "ملك" عن الحجاب والسفور: "إنى رأيت فى كتابة هذه السيدة حدة فى بعض الموضوعات وكأنها معذورة فى حدتها لامتلاك الموضوع نفسها وحواسها، فكتبت فيه وهى ممتلئة حنقاً، ولو ملكت نفسها لخفضت من حدتها، فقد رأيتها فى موضوع الحجاب تضرب البحر بعصا موسى، ولكنه لم يطعها بل بقى غريقاً عميقاً على أن فى صفاء مائه ما يغنى عن انغلاقه، وستظهر الأيام أن رأيها فى الحجاب رأى لم تقدر على تخميره ولم تملك حرية القول فيه وإننى لست معها فى أمره وأرى غير ما تراه فيه"[٤].

وعلى الرغم من معارضته لملك فى هذه القضية إلا أنه لا ينكر إيجابياتها فى مقالات عديدة ومعالجتها لآفات اجتماعية كثيرة، وهذا ما ذكره فى قوله لها" أَيَّتُهَا الفاضلة ناشدتك الله أن تكونى لبنات زمانك هذا قدوة فى عملك بما تقررينه فى أقوالك وخطاباتك، حتى يكون نصحك مقرونا بالإجابة مصحوباً بالقبول، وإنى لأعلم منك ذلك، ولكن لابد من أن أنصحك به؛ لأنه إذا ظهر على الناصح عمل أولاً بنصائحه قبل المنصوح"[٥].

وفى مقالها "تربية البنات فى البيت والمدرسة" عرضت ملك الفكرة الرئيسية فى المقال وهى: أسباب كراهية الأولاد للمدرسة، وذكرت هذه الأسباب فى صور

(١) الشيخ حسين والى.. .. أستاذ فى الأزهر، ومدرسة القضاء الشرعى سابقاً.
(٢) النسائيات – ملك حفنى ناصف –ص١٦٣.
(٣) الشيخم عبد الكريم سلمان: رئيس تفتيش المحاكم الشرعية سابقاً.
(٤) نفس المرجع السابق ص١٥٢.
(٥) نفس المرجع السابق ص١٥٣.

أفكار جزئية متسلسلة منسقة مترابطة فذكرت أول سبب وهو تخويف الأمهات لأولادهم وعقابهم بذهابهم إلى المدرسة فصارت المدرسة بالنسبة إليهم عقاب، إذا وقعت منهم نقيصة أو عيب، ثم تنتقل إلى فكرة أخرى فى نفس المقال، وهى تصويرها لرؤية بعض البيوت المصرية للمدرسة فكانوا ينظرون إليها وكأنها مسرح ترفيهى، يعرضون فيه أزهى الملابس المُزَرْكَشَةِ الرقيقة وتنتقد الكاتبة هذه الرؤية القاصرة فتجدها تقول فى نهاية هذا المقال: "لا تكمل تربية الفتيات بحيث تصير المدرسة مسئولة عنهن، بالمعنى الصحيح، إلا إذا كن لا يبرحنها كالداخلية مثلا أو إذا كانت أمهاتهن متعلمات يساعدن على القيام بأعبائها"(١).

ويوافقها الرأى الأستاذ إسماعيل صبرى(٢) إذ يقول:

"أجل يا بنت حفنى، إن تربية بنات مصر لهو العلاج الأكبر الذى غاب عن أكثر الباحثين فى أسباب انحطاطنا، وثقل خطانا فى طريق التقدم، إن الفتاة إذا أصبحت أما وكانت متعلمة متهذبة، آخذة من أسباب التربية بما تشيرين به كانت لولدها فى مهده ملكاً حافظاً، فإذا حملته رجلاً سددت خطاه، فإذا انطلق لسانه هذبت كلماته، فإذا سُلِّم لمعلم كانت رقابتها نافعة فى حث الصغير على الاستفادة وحمل المعلم على الإفادة"(٣).

وبأسلوب تعجبى عرضت "ملك" مقالها "من مساوئ الرجال الظلم" فقد بدت الفكرة الرئيسية للمقال فى صورة سؤال عن سبب انصراف الزوج عن زوجته وزواجه بثانية، فقد عدته الباحثة ضرباً من ظلم الرجل على زوجته، وأن ما فعله مألوفاً وليس بالغريب، فالرجل فى تلك الفترة كان كثير الزواج حتى ولو لم تتوافر لديه الأسباب التى تدعو إلى ذلك، وعرضت "ملك" فى مقالها بعض النماذج الحياتية

(١) من مقال تربية البنات -ملك حفنى ناصف – النسائيات – ص٣٦.
(٢) الأستاذ/ إسماعيل صبرى، هو: وكيل نظارة الحقانية سابقاً.
(٣) النسائيات – ملك حفنى ناصف – ص١٥٤.

التى تعرضت لظلم الرجل مما أضفى على المقال حيوية وتجديد وعمل على جذب انتباه القارئ، كما ربطت أحداث المقال بواقع المجتمع المصرى آنذاك، وبأسلوب بسيط وجزل بعيد عن التكلف والتعقيد وقد توصلت ملك إلى معالجة هذه القضية إذا قالت: "ليت شعرى إذا افترضنا أن زواج الرجل بثانية ناتج عن ولادة زوجته الأولى للبنات، فهل للمرأة يد فى ذلك؟ ولماذا لا يعاب الرجل كما يعيبها، لماذا لا تعافه المرأة وتطلب إليه أن ينفصل عنها وتتزوج غيره لتلد ذكوراً؟ إذا صح أحد الزوجين أن يتشبَّثَ بهذه الخرافة صح للثانى أيضاً إذ هما فى حقها وبطلانها سيَّان"(١).

استطاعت "ملك" ملاحقة الظواهر السلبية فى مختلف النشاط الإنسانى فى مصر خاصة، وفى العالمين العربى والإسلامى عامة فى السلوك والفكر والعادات، ولقد عبرت عن هذه الظواهر بأسلوب سهل جزل تفهمه جميع طبقات المجتمع المثقفة وغير المثقفة، بل ويتفق مع أسلوب الصحافة اليومى الذى لا يهتم بالترصيع والتنميق، ولا يستطيع أن نغفل عن عاطفة الكاتبة التى ترجمت مشاعرها الصادقة عن طريق مقالاتها، وقال الأديبة مى عن عاطفة ملك: "إنى لأقبض على شجاعتى بيدى لأعترف أنى أحب آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها، وأتمنى من أعمال فؤادى أن تجد دوماً تلك الآلام مَنْفَذاً رحباً إلى قلبك، وأن يبقى هذا القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أيا كان – بالاختصار عفوك عفوك – أتمنى لك العذاب المعنوى؛ لأنه النار المقدسة أجل هى التى تطهر، النار التى تحيى النار، النار التى تلين، النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة والتحمس لإجراء الإصلاحات اللازمة، وتنفيذ المبادئ الطيبة"(٢).

(١) من مقال "من مساوئ الرجال الظلم" – ملك حفنى ناصف – النسائيات –ص٧١.
(٢) نفس المرجع السابق –ص١٧.

لقد عرفت مى آلام "ملك" وشقائها وعذابها طيلة حياتها، وأن آلامها ما تركتها إلا وهى جسد لا حراك فيه، وما نتج عن هذا الألم طيلة حياتها كان إحساس متدفق بمعاناة الغير والشعور بالآخرين بكل أحاسيسهم ومشاعرهم، وعبرت عن هذه المشاعر من خلال ما كتبته من مقالات، ولقد ردت "ملك" على مى إذ قالت: "لماذا يا مى تدعين على بالعذاب المعنوى، ألا إنما العذاب البدنى أخف منه وطأة وأعفى أثراً، على أنى جربت كليهما، وزقت الأمرين منهما معاً، تقولين: "لأنه النار المقدسة نعم لقد أعطانى من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلى حتى جعل البون بعيداً جداً بينى وبين هذا العالم الغير قِدِّيس"(١).

(ج) الشخصية: برزت شخصية "ملك" فى معالجتها لبعض موضوعات مقالاتها، خاصة الموضوعات التى كانت تعالج بعض القضايا الاجتماعية مثل مقالها عن "ازدراء الرجل بالمرأة" ومدى ظلمه واستبداده بها، ومقالها عن تربية البنات، فقد وضحت رؤيتها تجاه بعض الأساليب الخاطئة المتبعة فى تربية البنات وبينت مدى أهمية دور البيت فى إعداد فتاة صالحة كما وضحت شخصيها عندما نادت فى مقالها بالبعد عن التقليد الأعمى للعادات والأوربية والتمسك بالتقاليد العربية الموروثة.

وبرزت شخصية الكاتبة بقوة وخاصة فى مقالها عن تعدد الزواج فقد أوصت فى مقالها بعدم الزواج بزوجة أخرى إذا لم يكن فيه سبب وإذا أصر الزوج على الزواج مرة ثانية فعليه أن يخبر زوجته الأولى.

ولقد وجدت "ملك" استحسان لما أبدته من رأى، وأيدها البعض فيما ذهبت إليه فقال الأستاذ حسين والى مخاطبا القضاة:

(١) النسائيات – ملك حفنى ناصف –ص ١٧.

"يا قضاة الإسلام اعملوا بتلك الوصية، واضربوا على أيدى الرجال حتى لا يتزوج الرجل واحدة، إلا بإذن القاضى بعد علمه بالقدرة والمصلحة والعدل"(١).

وضحت شخصية "ملك" فى مقالها "سن الزواج" وذكرت السلبيات الناتجة عن زواج الفتاة فى سن صغيرة لعدم قدرتها على تحمل المسئولية، كما وضحت فى مقالها "طلاء الوجوه" بعض العادات الدخيلة على المجتمع المصرى، ومنها خروج المرأة المصرية بكامل زينتها دون ورع أو حياء فهى كامرأة استطاعت أن تعرض هذه القضية إذ قالت مخاطبة نساء عصرها: "يا نساء اتركن هذه العـــادة الذميمة، وإن كان لا يسلكن غير صناعة النقش بالألوان فأمامكن الورق، ليس أكثر منه انقشن فيه صوراً ورسوماً، تحلى جدران المنزل، واشكرن الله على نعمه الجزيلة"(٢).

ويوافقها الرأى الأستاذ حسين والى إذ يقول رداً على ما جاء فى مقالها: "إن أهل مصر الآن خليط من العرب والفراعنة، وغيرهم وليسوا خليطاً من العرب والفراعنة فقط، فالقشرة الطبيعية كالقشرة الصناعية الحاصلة بسبب الجهل والغش"(٣).

أفاضت "ملك" فى تبيان فضائل القومية، وفضائل الإسلام فى شتى المناسبات وتقول الدكتورة سهير القلماوى "أنها أول كاتبة عربية فى العصر الحديث، استطاعت أن تربط بين مفهوم شامل للتراث كتراث، ومفهوم واسع للجديد والمدنية الحديثة كمدنية"(٤).

وإننى أميل إلى هذا الرأى، فقد استطاعت "ملك" أن تمسك بزمامين زمام تراثنا العربى الأصيل، وعاداتنا وتقاليدنا التى نشأنا عليها وبين كل جديد تجد فيه

(١) النسائيات -ملك حفنى ناصف -ص١٦٥.
(٢) نفس المرجع السابق -ص٥٢.
(٣) نفس المرجع السابق -ص١٦٥.
(٤) النسائيات – ملك حفنى ناصف ص٨.

دعوة صريحة للمدنية والحضارة والعلم بشرط ألا يخالف ديننا بل يتفق وأهواءنا، وقد ظهر هذا الاتجاه فى معالجتها للعديد من القضايا الاجتماعية والتى صورتها فى مقالاتها وعرضتها عرضاً شيقاً بأسلوب مقنع وقوة حجة، وسلامة منطق، وحرارة عاطفة.

إلى جانب أن "ملك" لم تكتب ما كتبت عن حماس أو تعصب فجٍّ، بل استصحبت فى كل ما سطره قلمها عقل ناضح مفكر، ومنطق سديد، وثقافة بصيرة ورؤية نافذة، فلم تنهج منهج المتزمتين الذين يصدون آذانهم ويغلقون عقولهم فى وجه أى جديد، ويعيشون دائما فى إسار الماضى.

وقال الأستاذ لطفى السيد عن كتابات "ملك": "إننى أقرر من غير محاباة أنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها فى عصرنا الحاضر، بل هى تعطينا فى كتاباتها صورة الكاتبات الغربيات، اللائى يتفوقن على كثير من الكتاب، وليس نبوغ الكاتبة "ملك حنفى ناصف" عملاً من أعمال الصدفة، بل هو قضية علمية مقررة؛ لأن هذه الكاتبة من بيت علم وأدب، انتقل إليها من أبيها حفنى بك ناصف بحكم الوراثة الطبيعية، والاجتهاد بعد المدرسة حتى وصل إلى هذا الحد المتقدم(١).

ولم تكتف "ملك" بكونها كاتبة للمقالات، بل تنوعت فنون أدبها فوجدنا من "ملك" الوطنية البارعة ذات الصوت المؤثر والمعبر فى وقت انخفضت فيه الأصوات عن قول الحق ولكن كان صوت "ملك" مدوياً فى جميع الأركان.

ثانياً: الخطابة وملامحها الفنية:

تميزت الخطابة الحديثة بسعتها وتنوع موضوعاتها وحرية أسلوبها، فبعد أن كانت قبل النهضة ضيقة النطاق، تغلب عليها الصناعة ويسودها الإسفاف والتكلف المستهجن، أصبحت واسعة المجال تجرى فى طريق التعبير المرسل الحر، والخطابة نوع من الترسل، وقديماً كان الباحثون فى البلاغة قلما يميزون بينهما، وعليه يقول أبو هلال العسكرى: الرسائل والخطب متشاكلان فى أنهما كلام لا يلحقه

(١) النسائيات – ملك حفنى ناصف –ص٨.

وزن ولا قافية، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، والفرق بينهما أن الخطبة يُشَافَهُ بها بخلاف الرسالة، والرسالة تُجَعَلُ خُطْبَةً، والخُطْبَةُ تُجْعَلُ رِسَالِةً فى أيسر تكلفة"(١).

لقد ساعد على تقدم الخطابة العربية فى هذا العصر ما نشأ فيه من مختلف الجمعيات والنوادى الخطابية، وما قام فيه من حكومات دستورية فى شتى الممالك العربية مما نشط الاهتمام بالحياة العمومية، والشئون الشعبية"(٢).

وكانت "ملك" من المجدات المجتهدات؛ لأنها أول من أعادت الخطابة إلى فريق النساء، بعد أن طمست معالم هذه السنة، سنة أخذها الغرب عن العرب فارتقى وأهملها الشرق فانزوى.

"فلم تكتف ملك بالمقالات على صفحات الجريدة بل ألقت بعض الخطب فى نادى حزب الأمة وقد جمعت عدة مئات من السيدات مرة فى "دار الجريدة" ومرة فى "الجامعة" وخطبت فيهن خطبتين نفيستين، ظهر فيهما العدل والاعتدال"(٣).

وقد نشرت "الجريدة" خطبة لها تحت عنوان "أول خطيبة مصرية" تناولت فيها مزاحمة الرجل للمرأة فى ميدان العمل واعتراضه على عمل المرأة، كما أنها أنكرت على الرجل منعه لتعليم المرأة ولنذكر مقتطفات من هذه الخطبة:

قالت فى مزاحمة الرجل للمرأة فى عملها: "يقول لنا الرجال أننا تعلمنا لنزاحمهم فى أشغالهم، ونترك أعمالنا التى خلقنا الله لها، فليت شعرى ألم يكونوا هم البادئين بمزاحمتنا، فكانت المرأة فى العهد السابق تغزل الخيط وتنسج ثياباً لها

(١) الصناعتين – أبو هلال العسكرى – ص١٠٢.

(٢) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة – أنيس المقدسى –ص٤٠٠ – ط. دار العلم للملايين.

(٣) هدى شعراوى – عصر التنوير – نبيل راغب –ص٤٣ –وبلاغة النساء فى القرن العشرين – فتحية محمد –ص١٩ –ط. السعادة.

ولأولادها، فاخترعوا آلة الغزل والنسج فأبطلوا عملها من هذا القبيل، وكانت المرأة تغربل القمح وتهرسه وتطحنه على الرحا بيديها ثم تنخله وتعجنه فتهيئ منه خبزاً، فاستنبطوا ما يسمونه (بالطابونة) واستخدموا فيها الرجال وأراحونا من ذلك العمل الكثير، ولكنهم عطلوا لنا عملاً، وكانت كل امرأة من السالفات تخيط لنفسها ولأفراد بيتها، فابتكروا آله للخياطة يشتغل فى حديدها وصنيعها الرجال ولست أريد من ذلك كله أن أَذُمَّ هذه الاختراعات المفيدة التى اخترعها الرجال، وإنما كان هذا الشرح ضرورياً لبيان أن الرجال هو البادئون بالمزاحمة، فإذا ما زاحمناهم اليوم، فى بعض أشغالهم فإن الجزاء الحق من جنس العمل"(١).

إننى أرى أن ما قالته ملك فى خطبتها لا يعنى مزاحمة الرجل للمرأة فى أعمالها؛ لأن هذه الأعمال لم تختص بها المرأة وحدها، فهى حرف ومهن عامة يمتهنها أى فرد من الجنسين ثم ترجع الكفاءة والمهارة إلى من يتقن ويجيد هذه الأعمال ويحاول تطوير آلاتها؛ لأن هذا التقدم لا يعود على جنس دون آخر فى المجتمع بل يشمل كل أفراده، وإننى لا أوافقها على قولها: "إن الجزاء من جنس العمل" فما أقدم عليه الرجل لا يعد جزاء وإنما هو مشاركة ومساهمة فى التطوير، وما تقوم به المرأة اليوم من أعمال حرفية ومهنية لا يرجع إلى انتقامها من الرجل، ومبادلته العقاب بالعقاب، إنما يعنى مشاركتها له فى مسئولياته وتحملها معه لأعباء الحياة ومشاقها.

وتنتقل "ملك" فى خطبتها إلى وجوب تعليم المرأة فنجدها تدعو إلى العلم والتعليم وتهيب بالحاضرات أن يتقدمن لصفوف العلم والمعرفة فتقول:

"أيتها السيدات العلم منور للعقل على أى حال سواء عمل به أم لم يعمل فماذا يضرنا، أننا لا نشتغل بمسح الكرة الأرضية ولا بالسياحة ولكن نعلم مواقع البلاد

(١) خطبة ملك فى نادى حزب الأمة نشرت فى "النسائيات" ص١٠٦.

وأبعادها، إن الطبيب يتعلم الجبر فى تلمذته ولكنه لا يشتغل به فى صناعته، كلنا نسمع بأخبار السياسة والرجال يشتغلون بها، ولكنهم لا يحدثون أنفسهم بأن يولوا مكان ذلك الملك المقتول أو السلطان المعزول، فهل نقول لهم إذا كنتم لا تتملكون فى تلك الأمم فلا يجوز لكم أن تعرفوا سياستها وأخبارها"(١).

استطاعت "ملك" بأسلوبها المنطقى، وتفكيرها الصائب وقوة حجتها أن تحث فى خطبتها نساء عصرها على التعليم فوضحت مدى أهميته للإنسان بصفة عامة لا فرق بين رجل وامرأة، فالتعليم وسيلة لمعرفة كل شىء وبدونه لا يشعر الإنسان بآدميته.

ونجد "ملك" الخطيبة وقد وقفت موقفاً محايداً من بنات جنسها، حيث ذكرت لهن بعض العيوب التى تصدر منهن فرأتها بعين الأنثى وأرادت منهن الامتناع عنها فخطبت فيهن قائلة: "من عيوبنا نحن النساء أننا لا نكترث كثيراً بالنصح، فإذا قامت سيدة تريد مبدأ أو إظهار حقيقة، قال أكثرنا مالها ولهذا، وإن كانت تَغَارُ فلتعمل مثلنا ومن غير ذلك من الألفاظ، ومن عيوبنا السخرية والتهكم فكثير منا تنتقد من تصادفه وتعيب عليه، لا عيباً حقيقياً يستدعى ولكن لولوع بانتقاد فى ذاته، ومن عيوبنا الصَّلَفُ والاغترار، يشكو للرجال من تبرجنا فى الطرقات وحق لهن، لأننا خرجنا فيه عن المألوف والجائز، نحن نزعم أننا نحتجب، ولكن ما بلغنا حجاباً ولا سفوراً، لا نريد أن نرجع لحجاب جداتنا ذلك الذى يصح أن يسمى وأداً لا حجاباً، فقد كانت السيدة تقضى عمرها بين حوائط منزلها، لا تسير فى الطريق إلا وهى محمولة على الأعناق، ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فإنه مُضِرٌّ بنا"(٢).

تدرجت "ملك" فى أسلوبها الخطابى حتى وصلت إلى غاية أمرها من تفصيل توضيحى لبعض عيوب النساء ومنها السخرية والتهكم والصلف والغرور والتقليد

(١) من خطبة "ملك" فى نادى حزب الأمة.
(٢) من خطبة "ملك" فى نادى حزب الأمة.

الأعمى الذى يغربنا عن عاداتنا وتقاليدنا، فخطبت فيهم ناصحة مرشدة، ولقد تحينت فرصة وجود حشد كبير من الرجال إلى جانب النساء فى "نادى حزب الأمة" فقدمت اقتراحاتها والتى تمثلت فى إطلاق الحرية فى تعليم الفتاة العلوم الراقية، واتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة، وجعل التعليم الأولى إجبارياً فى كل الطبقات، والمحافظة على مصلحة الوطن، والاستغناء عن الغريب من الأشياء بقدر الإمكان.

أما الخطبة الثانية فقد ألقتها "ملك حفنى ناصف" فى الجامعة المصرية بحضور مئات من السيدات المصريات، وكان عنوانها "المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية".

وتناولت "ملك" فى خطبتها المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية وشملت أوجه المقارنة حال المرأتين فى كل أدوار حياتهما منذ الولادة والنشأة والتربية حتى الزواج، وقد أرادت من هذه المقارنة تصوير حال المرأة المصرية فى كل أدوار حياتها منذ أن تستقبل فى هذه الحياة وتعامل كأنثى وتنشأ فى نشأة تختلف عن نشأة الذكر وتحرم من بعض حقوقها فى التعليم والحرية وإبداء الرأى، فى حين مثيلتها الأوربية تتمتع بتلك الحقوق فتنشأ الفتاة المصرية غير قادرة على تحمل مسئولية أسرة ولا تربية نشأ فتقول:

مخاطبة المرأة المصرية: "للإفرنج طريقة فى تربية الأطفال خير من طريقتنا، فتجدهم يعاقبون الطفل الذى يبكى لطلب شىء بالحرمان منه، فيعلم أن البكاء لا يجدى، ويطلبه بالطرق المشروعة، وإن منع فلا يتشبث به، ويستحضرون فى المنزل، ما تمسُّ إليه حاجة الأولاد من الحلوى واللعب خوفاً عليهم من قذارة ما فى الأسواق واقتصاداً للمال والزمن"(١).

وتناولت "ملك" فى خطبتها الفرق بين المرأة المصرية والأوربية عند استقبالها للمسرات أو الأحزان فأشادت بعقلانية المرأة الأوربية وبأنها لا تدع للحزن

(١) من خطبة "المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية – ملك حفنى ناصف.

مجالاً يفسد عليها حياتها ويلهيها عن عملها وحياتها بعكس استقبال المرأة المصرية له فتجدها تفسح لها المجال والمكان، المجال فى كل أمور حياتها والمكان فى عقلها وقلبها فلا تعرف من أمور بيتها أو أطفالها إلا القليل، فالحزن يلهيها ويشغلها عن أهم حياتها فتقول مخاطبة نساء عصرها:

"بينما الإفرنجية ورجالنا أيضاً يجتهدون فى التلهى والتعزى عن المصيبة، تجدنا بالعكس نعقد الاجتماعات لنبكى ونستأجر النائحات ليزدن نار الأسى تأجُّجَاً فى قلوبنا، وماذا يجدى الحزن وهو لا يرد ميتاً، ولا يعيد مفقوداً يقول: أبو العلاء المعرى:

غــَيْرُ مُجْــِد فِى مِلَّتِى واعتِــقَادِى ∴ نــَوْحُ بَــاكٍ وَلاَ تَرَنُّــمُ شَــــــادِ

وتقول "ملك" فى المسرات:

"إننا فى جلب المسرات لمقصرات حيال أنفسنا ومن هم فى ذمتنا من الأهل والأولاد – حبذا – لو اتبعنا طريقة المرأة الغربية فى ذلك، فإنها تعقد الاجتماعات وتوالى السمر، وتدعو أعضاء الأسرة الواحدة فيتجاذبن الحديث، وهنالك من يبدى كل منهم رأياً أو حكاية، لا تخلو من فائدة أو فكاهة"(١).

أجادت "ملك" فى عقد تلك المقارنة التى من خلالها استطاعت أن تطلعنا على بعض العيوب، فأحياناً يكون العيب فينا ولا نعرفه إلا بالمقارنة مع الآخرين وإننى أذكر أن استقبالنا للأحزان أو المسرات لا يعد عيباً مقصوداً وإنما هو تقليد موروث لا يتغير إلا بتغير أوضاع اجتماعية معينة منها تعليم المرأة ووعيها وعياً ثقافياً واجتماعياً، وخروجها لمجال العمل الذى تجد فيه السلوة والغاية.

(١) خطبة "ملك" فى المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية" النسائيات – ص ١١٢.

وتنهى "ملك" خطبتها وسط جموع الحاضرين والحاضرات من النساء والرجال بنصائح للجنسين وخاصة فى تلك الفترة، التى بات تقليد المصريين للأوربيين شيئاً مألوفاً إذ تقول:

"إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح، تحتم علينا أن لا نقتبس من المدنية الغربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره، حتى يكون ملائماً لعاداتنا، وطبيعة بلادنا، نقتبس منها العلم والنشاط والثبات وحب العمل، نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة"(١).

لقد أحيت "ملك" هذه السنة، سنة الخطابة وأعادتها إلى فريق من النساء فكانت أول خطيبة تلقى على أترابها الخطب، ساعية إلى تحقيق غايتها لإصـــلاح حال المرأة وحال المجتمع، وقد تضمنت خطبها كثير من الموضوعات الاجتماعية التى تهم الرجل والمرأة معاً، وقد ناقشت العديد من القضايا الاجتماعية بأسلوب جزل، بعيد عن العمق والتعقيد مستخدمة ألفاظ واضحة بعيدة عن الابتذال والتكلف، يسهل على المستمع والقارئ فهم مغزاها مثل قولها عن الاقتصاد المنزلى "لا تكتفى المرأة الغربية بتنمية مالها، بل تضع (ميزانية متوازنة) مضبوطة لإيراد بيتها ومصروفه، فلا تخرج عن حد الاعتدال فى النفقات، ولا تنفق درهما فى غير موضعه".

كما تميزت خطب "ملك" بالإقناع ودقة التعبير وقوة التأثير، فتناولت الحقائق الملموسة، والمسائل الواقعية الجادة البعيدة عن التهويم الخيالى، ولا غرو فإن الخيال من سمات الشعر لا الخطابة. مثل قولها عن المرأة المصرية:

"المرأة المصرية لا تقدر نفسها، وكم رأيت سيدة تضاحك الخادمات وتكاشفهن أسرارها، فلا يتأخرن عن إذاعتها فى البيوت الأخرى، وهذا من الخطل فى الرأى، يجب أن يعامل الخدم بالرأفة ولكن لا تتعدى تلك الرأفة حدودها.

---

(١) نفس الخطبة.

وغلب على خطب "ملك" الوضوح الكافى، والشرح الوافى، فقد اعتمدت على الجمل القصيرة ولم تفصل بين أجزائها كما لجأت فى بعض الخطب إلى أسلوب الاستفهام مثل قولها: "يقولون إننا بتعلمنا نزاحمهم فى أشغالهم ونترك أعمالنا التى خلقنا الله لها، فليت شعرى ألم يكونوا هم البادئين بمزاحمتنا؟

وقولها أيضاً: "يقول لنا الرجال ويجزمون: إنكن خلقتن للبيت، ونحن خلقنا لجلب المعاش، فليت شعرى، أى فرمان صدر بذلك من عند الله، ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب؟

وتميزت موضوعات الخطب التى عرضتها "ملك" بالترتيب والتسلسل فكل موضوع رتبت أجزاؤه ترتيباً منطقياً متسلسلاً كل جزء فيه مبنى على الذى قبله مثل خطبتها عن المرأة المصرية والمرأة الأوربية.

وابتعدت "ملك" فى خطبتها عن التكلف، وتنميق الكلام، وأكدت ما تحتاج من أفكارها إلى توكيد، وابتعدت عن الحشو والكلام الكثير الذى لا فائدة منه وبخاصة أثناء معالجتها لبعض القضايا الاجتماعية.

ويلاحظ سيطرة الجو العاطفى فى الكثير من الخطب وهدفه الإشفاق والحرص على التقدم، وتحقيق الأهداف التى تسعى إليها الباحثة.

تميزت "ملك" بالبديهة الحاضرة، والثروة اللغوية الواسعة التى ورثتها عن أبيها، كما تميزت بالقدرة الفائقة على عرض موضوعاتها ومناقشتها مناقشة موضوعية، وطرح الحلول الملائمة للعديد من المشكلات الاجتماعية.

وقد قال الأستاذ عبد الكريم سلمان عن "ملك": "أيتها السيدة الفاضلة لا تبالى بما يعترضك من قول اللائى لم يَشَمّن نور العلم ما للسيدات وللخطابة وما لهن وللكتابة، إن رضى أبوها فكيف رضى زوجها، وإن رضى زوجها فكيف رضيت عشيرتهما، فإن العلم دائماً محسود أهله، ولن يغلبه الجهل مهما كثر مشيعوه"

شعر ملك حفنى ناصف غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية

كانت "ملك" الأديبة تملك من الثقافة والخبرة ورهافة الحس ورجاحة العقل ما يؤهلها لكى تمتزج بالمجتمع وتتعرف على قضاياه وتناقشها وتعرضها فى أدبها بصوره المختلفة فتبدو فى مقالة أو خطبة أو قصيدة شعرية ، لتحقق غايتها من إصلاح منشود للمجتمع ، وعرفنا ملك الكاتبة والخطيبة التى اتخذت من الكلمة معولاً تحمله على كتفيها لتحقق به غايتها ، وأثرت وتأثرت بالأوضاع الاجتماعية السائدة وما تحمله بين طياتها من عادات وتقاليد بالية أو ما يتوارث من مبادئ وتعاليم فاسدة ، فكتبت عنها فى العديد من مقالاتها وأفسحت لها المجال فى خطبها ، ولم نعرف "ملك" كاتبة وخطيبة فقط ، بل عرفناها شاعرة أيضاً ، وإن كانت مقلة فى أشعارها أكثر من كتاباتها ، ويرجع ذلك إلى انشغالها بالناحية الإصلاحية ، وانصرافها إلى الكتابة فى الصحف بصفة دائمة ، فوجدت أن كتابتها للمقالات وسيلة فعالة لمعالجة القضايا أكثر من نظم الشعر ، ولهذا قل شعرها ، ويرجح بعضهم أن سبب قلة شعرها يرجع إلى ضياع الكثير منه ، وقد ظهرت موهبة الشعر عند ملك وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ، ثم نمت هذه الموهبة تحت رعاية والدها حفنى ناصف ، وأنتجت العديد من القصائد الشعرية التى تناولت فيها آلام المجتمع وقضاياه ومشاكله ، وكانت "ملك" تدون الشعر فى كراسة على حسب الترتيب التاريخى ، وقد ضاع معظم شعرها فى بيت الزوجية.

وتقول ملك: "ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف الدنيا وتستولى عليهم غرورها ، فأطمع فى أكثر مما أنا فيه وليس لى حال أشتكيه ، ولكن لى قلباً يذوب عطفاً وإشفاقاً ، إن قلبى يتصدع من أحوال هذا المجتمع الفاسد"(١).

(١) دراسات أدبية ، د/ أحمد هيكل – ص ١٦ – ط. دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م.

وقد وظفت "ملك" شعرها فى عرض آلام وأحوال المجتمع فى تلك الفترة حتى عند نظمها لأول قصيدة كتبتها إذ قالت فيها:

قَـوْمِى عَلَـيْكُم بِتَقْـوَى اللهِ إِنَّكُـمُ ∴ رُزِئْتُمُو بِصُرُوفِ الـدَّهْرِ وَالغِيَـرِ
مَاتَـتْ جُـدُودُكُمُ لَكِـن ذِكْـرَهُمُ ∴ بَاقٍ لَنَا فِى جَبِين الـدَّهْرِ كَـالغُرَرِ
قَدْ خَلَّفُوا الْفَضْلَ والأَزْمَان شَـاهِدَةٌ ∴ بِمَجْدِهُمْ وَدَلِيلُ القَوْلِ فِـى الأَثَـرِ
وأَنْتُمو فِى الشَبابِ الغَضِّ لَيْسَ لَكُمْ ∴ سِوَى المَسَاوِى فِى أَلْفٍ مِنَ الصُّوَرِ
تَرَكْتُمُو الدِّينَ والشَّرْعَ الشَّرِيفَ فَوَا ∴ خَوْفِى عَلَيْكُمْ مِنَ التَّفْرِيْقِ واحْذَرَى
تَفَرَّقَ الشَّمْلُ مِنْكُـمْ دُونَ نَيْلَ مُنَـىً ∴ وَلَوْ جَمَعْتُمْ لَصِـرْتُمْ زِيْنَةَ البَشَرِ(١)

هذه القصيدة أول ما كتبته ملك من أشعار ، وهى قصيدة حماسية ، وقد نشرتها فى "الجريدة" وفيها تحث قومها وشباب جيلها على اليقظة والعمل والاتحاد ، وأن يقتفوا آثار جدودهم ، ويحققوا كما حققوا هم من مجد وانتصار.

ولم تتوقف "ملك" عن نظم الشعر ، بل ظلت تنظم العديد من القصائد وتنشر منها ما تستطيع نشرة ، ومن تلك القصائد ، قصيدتها عن "**الحجاب والسفور**" ولها قصيدة عن مجد الفتاة وعن الحياء وعن الاقتصاد كما لها بعض القصائد عن الرثاء وهذه قصيدتها فى رثاء الشيخ محمد عبده قالت فيها:

لِيَبْكِكِ العِلْمُ وَالإِسْـلامُ مَـا سَـلمَا ∴ وَلْتَذْرِفَا الـدَّمْعَ أَوْ فَلْيَمْزِجَـاهُ دَمَـا
وَلْيَبْعَثْ الفَضْلُ فِى مُتْعَاكِ رُوحَ أَسَىً ∴ كَمَا بَعَثْتِ إِلَـى تَحْصِـيلِهِ الأُمَمَـا
غَالَتْكِ غَائِلَةُ المَوْتِ الَّتِى صَـدَعَتْ ∴ مِن الهُدَى عِلْمَاً تَعْشُـو لَـهُ العِلْمَـا
مَدَدْتِ لِلْعِلْمِ فِـى مِصْـرَ جَدَاوِلَـهً ∴ فَلَمْ تَدَعْ فِى نُفُوسِ الـوَارِدِينَ ظُلْمَـا
وَالدِّينُ طَهَّرْتِه مِنْ بِدْعَةٍ عَرَضَـتْ ∴ عَلَيهِ فِى سَالِفِ العَصْرِ الّذِى انْصَرَمَا
وَالعِلْـمُ والدِّيْـنُ لِلجِنْسَيْنِ مَطْلَـبٌ ∴ فَلَيْسَ يَخْتَصُّ جِـنْسٌ مِنْهُمَـا بِهَمَـا

(١) شاعرات عربيات -روحية القلينى – ص٤٧ – ط. الدار القومية للطباعة والنشر.

فَنَحْنُ فِي الحُزْنَ شَاطَرَنَا الرِّجَالُ كَمَا ∴ فِـــي الاسْـــتَفَادَةِ شَـــاطَرنَاهُمُ قُـــدُمَا
لَهْفِي عَلَى طُرُقِ الإِصْلاحِ قَدْ تُرِكَتْ ∴ بِلاَ مُنَـــادٍ وَأَمْسَـــى نُورُهَـــا ظُلُمَـــا
يَا حُجَّةَ الدِّينِ مَـــنْ يُبْلِـــي دَعَائِمُـــهُ ∴ لِمُسْـــــلِمِينَ إِذَا بُنْيَانُـــــه انْهَـــــدَمَا
عَدَتْ عَلَيْكَ عَـــوادِي الدَّهْـــرِ فَاقْتَلَعَتْ ∴ مِنْ بَيْنِنَا بِـــرِدَاكِ العِلْـــمَ والكَـــرَمَا

❁❁❁❁❁❁

بكت "ملك" أستاذها وشيخها وشيخ جميع الأجيال حتى إن العلـــم والإســـلام يبكيان عليه ، فقد أفاض الشيخ محمد عبده بعلمه ومعرفته حتى لم يدع نفس ظمـــأى للعلم والمعرفة إلا وقد مدها بروافد علمه ومعرفته ، وقد بينت الشاعرة فـــى البيـــت الخامس ريادة الشيخ فى الإصلاح ، ثم ذكرت فى البيت السادس أن الشـــيخ محمـــد عبده قد طالب ودعا إلى التعليم لكل من الرجل والمرأة فهو الشيخ والمعلم والرائـــد يدعو إلى تعليم المرأة؛ لأن فيه صلاح لها وللمجتمع وتنعيه الباحثة؛ لأن فقده هو فقد لما كان يدعو إليه وأن ما أسسه وبناه سيهدم بتركه له.

حرصت "ملك" فى هذه القصيدة التى رثت فيها رائداً من رواد الإصلاح أن تبرز دور الإمام ودعوته وأن هذا الدور لابد وأن يستمر وأن دعوته قائمة لا محالة وعليهم أن يقوموا بمثل ما قام به من إصلاح وتنوير.

وهذه أبيات من قصيدة لها فى رثاء من سارت على دربها ونهجت نهجهـــا فكانت لها المثل والقدوة وهى الشاعرة "عائشة التيمورية" إذ قالت:

سَـــنَبْقَى بَعْـــدَ عَائِشِـــةٍ حَيَـــارَى ∴ كَسِـــرِبٍ فِـــى الفَـــلاَةِ بِغَيْـــرِ رَاعِ
هِي الدُّرُّ المَصُـــونُ بِـــبَطْنِ أَرْضٍ ∴ وَقَدْ كَانَـــتْ كَـــذِلِكَ فِـــى القِـــلاَعِ
وَكَانَـــتْ لِلمَكَـــارِمِ خَيْـــرَ عَـــوْنٍ ∴ وَلِلْخَيْـــرَاتِ كانَـــتْ خَيْـــرَ رَاعِ
لَهَا القَدَحُ المُعَلَّـــى فِـــى العَـــوَالِي ∴ وَفِي نَشْرِ المَعَـــارِفِ طُـــولُ بَـــاعِ
فَيَـــا شَمْـــسَ المَحَامِـــدِ غِبْـــتِ عَنَّا ∴ وَخَلَّفْـــتِ البُـــكَاءَ لِكُـــلِ نَـــاعِ[1]

(١) آثار باحثة البادية "ملك" حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف – ص ٣٠٤.

استطاعت "ملك" فى هذه الأبيات أن ترثى الشاعرة عائشة التيمورية وأن تذكر لها محامدها فى التوجيه والإرشاد فكانت رائدة ومعلمة سار على دربها الكثيرين ، وكانت هى منهم وهى لا تنساها حتى ولو غابت بجسدها فإن روحها خالدة باقية ، فنلاحظ أن "ملك" أرادت أن تحقق من هذا الأمر غاية ألا وهى التقدير والاحترام للمعلم القدوة وبخاصة للشباب الذين يغضون أبصارهم عن أساتذتهم ومعلميهم ، لا حياء منهم ، إنما امتهاناً لهم ولأشخاصهم ، كانت "ملك" أستاذة ومعلمة عصرها ومع ذلك كانت خير من عرفت الوفاء والقدر لأستاذتها.

وشاركت الباحثة فى الدعوى إلى الإصلاح الاجتماعى بفكر موصول بالإسلام فى قضايا المرأة والاقتصاد والتعليم من خلال أشعارها ، فتقول فى قصيدة لها بعنوان "الحياء"

إِنَّ الفَتَـاةَ حَدِيقَـةٌ وَحَيَاؤُهَـا ∴ كَالمَـاءِ مَوْقُـوفٌ عَلَيْـهِ بَقَاؤُهَـا
بِفُرُوعِهَا تَجْرِى الحَيَـاةُ فَتَكْتَسِـى ∴ حُلَلاً يَـرُوقُ النَّـاظِرَاتِ رُوَاؤُهَـا
إِيْمَانُهَـا بِـاللهِ أَحْسَـنُ حِلْيَـةٍ ∴ فِيهَا فَإِمَّا ضَـاعَ ضَـاعَ بَهَاؤُهَـا
لاَ خَيْرَ فِى حُسْنِ الفَتَـاةِ وَعِلْمِهَـا ∴ إِنْ كَانَ فِى غَيْرِ الصَّلاحِ رِضَاؤُهَا
فَجَمَـالُهَا وَقْـفٌ عَلَيْهَا إِنَّمَـا ∴ لِلنَّاسِ مِنْـهَا دِيْنُهَـا وَحَيَاؤُهَـا(١)

استطاعت "ملك" أن تصور هذه الصفة وهى "الحياء" فى أحسن تصوير فهو كالماء الرقاق والفتاة كالحديقة الغناء التى لا تثمر إلا بتدفق الماء.

وفى البيتين الأخيرين تتوجه "ملك" بحس المرأة الناضجة المرشدة لبنات جيلها ، بأن لا خير فى فتاة تعلمت ، وعلمها كان مفسدة لأخلاقها ، ولا خير فى فتاة حسن جمالها وساء خلقها.

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف – مجد الدين حفنى ناصف –ص ٣٠٩ ، وشاعرات عربيات –روحية القليني –ص٥٠.

وتقول "ملك" فى الاقتصاد والمقصود منه الاقتصاد المنزلى ، فهذه الأبيات فيها النصيحة والإرشاد لكل فتاة من أجل أن تتعلم الاقتصاد وتعمل به فتقول:

فِـــى كُـــلِّ شَـــىءٍ الاقْتِصَـــادُ ∴ عِنْـــوَانُ خَيْـــرٍ يُسْـــتَزَادْ
تُبْنَـــى عَلَـــى أَساسِـــه ∴ إِنْ تَـــمَّ إِسْـــعَادُ الـــبِلاَدْ
وَإِضَـــافةُ المَلّـــيم لِلمَـــ ∴ لّـــيمِ جَمَّعَـــتِ الـــتِّلاَلْ
وَالْبَيْـــتُ مَمْلَكَـــةُ صَـــغِيرَ ∴ ـــةُ، الفتـــاةُ لهَـــاَ عِمَـــادْ
مَـــا الأُمَّـــةُ الكُـــبْرىَ سِـــوَى ∴ الأَفْـــرَادِ جَمَّعَـــهَا اقْتصِـــادْ[1]

❁❁❁❁❁❁

استطاعت "ملك" أن تبرز قيمة الاقتصاد وأهميته وحاجة البلاد له فى تلك الفترة ، والاقتصاد لا يختص به فرد دون آخر ، إنما يشمل جميع الأفراد ، ويبدأ الاقتصاد بالبيت ، وهذا ما أشارت إليه "ملك" فى البيت الرابع ، فإذا حرصت ربَّةُ البيت على الاقتصاد وعلمت أولادها قيمته لنهضت الأمة ، وعم رخاؤها.

ومن أهم القضايا التى ناقشتها "ملك" وعرضتها بأسلوب شعرى رقيق ونظمت لها قصيدة ، "قضية الحجاب والسفور" فقد شغلت هذه القضية المجتمع بأسره فى تلك الفترة ، خاصة بعد إصدار كتابى "تحرير المرأة" " والمرأة الجديدة" لقاسم أمين ، فقد دعا قاسم أمين لخروج المرأة للتعليم والعمل واختلاطها بالرجال ، وقد أحدثت دعوته ثورة عارمة فى الأوساط ، فجعل من هذه القضية مؤيدين له ومعارضين ، فمن معارضيه الشاعر جواد الشيبى وعبد المحسن الأزدى وأحمد

(١) آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف ص٣١٠.

محرم ، ومن مؤيديه جميل صدقى ، ومعروف الرصافى [1]، أما "ملك" فوقفت موقفا محايداً فقد أيدته بما طالب به المرأة من تحررها لا تحريرها وأن هـذا التحـرر لا يكون إلا بالتدرج وخاصة فى هذا المجتمع الذى يرى أن الطفرة من المحال إذ قالت فى قصيدتها "الحجاب والسفور" :

أيسـوؤكم منَّـا قِيَـامُ نـذيرةٍ ∴ تَحْمِى حِمَاكُمْ مِـنْ بَـلاَءٍ مُحْـدِقِ
أَيَسُـرّكُمْ أَنْ تَسْـتَمَرَّ بَنَـاتُكُمْ ∴ رَهْنَ الإِسَارِ وَرَهْنَ جَهْلٍ مُطْبِـقِ
هَلْ يَطْلُبُونَ مِنَ الفَتَـاةِ سُـفُورَهَا ∴ حَسَنٌ وَلَكِـنْ أَيْـنَ بَيْـنَكُمُ التُّقِـى
تَخْشَى الفَتَـاةَ حَبَـائِلاً منْصُـوبَةً ∴ غَشَّيتُمُوهَا فِـى الكَـلامِ بَرَوْنَـقِ
لاَ تَتَّقِى الفَتَيَاتُ كَشْـفَ وُجُوهِهَـا ∴ لَكِن فَسَـادَ الطَّبْـعِ مِـنْكُمْ تتَّقِـى
لاَ تَطْفُروا بَلْ أَصْـلِحُوا فَتَيَـاتِكُمْ ∴ وَبَنَـاتِكُمْ وَتَسَـابَقُوا لِلأَلْيَـقِ
أَرَضَيتُمُـوا عَـنْ كُـلِّ شَىْءٍ عندنا ∴ وَخَشِيتُمُـوا أَمْـرَ القِنَاعِ إِذا بقِـى

❁❁❁❁❁❁

وتقول مخاطبة الرجال ناقدة تصرفاتهم:

لا تَـدْخُلُونَ الـدُّورَ إِلاَّ بُرْهَـةً ∴ تَرِدُونَهـا لِضَـرورةٍ كَالفُنْـدُقِ
لا تَصْـدُرُ الآراءُ يَـنْقُضُ بَعْضُـهَا ∴ بَعْضاً فَتُمْسِـى فِـى مَجَـالٍ ضَـيّقِ
ياليتَ شِعْرِى والمَشَـارِبُ أَمرُهَـا ∴ مُتَعَـاكِسٌ مِـنْ أَىّ وِرْدٍ تَسْـتَقِىَ
فَـدَعُوا النِّسَـاءَ وَشَـأْنَهُنَّ فَإِنّمَـا ∴ يَدْرِى الخَلاَصَ مِنَ الشَّقَاوةِ مَنْ شَقِى
لَيْـسَ السُّـفُورُ مَعَ العَفَافِ بِضَائِرٍ ∴ وَبِدُونِـه فَـرْطُ التَّحَجُّـبِ لاَ يَقِى[2]

(١) صوف الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم – د. جابر قميحه – ص١٣٣ ، ط. دار الهداية للطبـع والنشر.

(٢) آثار باحثة البادية ملك حفنى ناصف – مجد الدين حفنى ناصف – ص٣٠٨.

استطاعت "ملك" أن تحقق غايتها من نظمها لهذه الأبيات والتى تناولت فيها قضية الحجاب والسفور ، فقد تعجبت من هذه الدعوة الفجائية التى تطالب الفتاة بنزع حجابها وخروجها سافرة بدعوى التحرر والمدنية غافلين منهجها الإسلامى الذى نشأت عليه ، وعاداتها وتقاليدها التى غرست فى نفسها منذ نعومة أظفارها ، وتذكر لهم أن الفتاة لا تخشى كشف وجهها أكثر من خشيتها لفساد أخلاق بعض الرجال الذين يتعرضون لهن ، وكانت أبيات ملك هذه خير رد على من اتهمها بأنها داعية للسفور غافلين جانبها الروحى الإسلامى ومنهجها الذى اتبعت فيه نهج شيخها "الإمام محمد عبده" الذى قام على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى ، وبين الحياة الاجتماعية والدينية والأدبية فى مصر ، ولقد حسمت ملك هذه القضية بقولها فى البيت الأخير:

لَيْسَ السُّفُورُ مَعَ العَفَافِ بِضَائِرٍ ∴ وَبِدُونِهِ فَرْطُ التَّحَجُّبِ لاَ يَقِى

❁❁❁❁❁❁

وكتبت ملك قصيدة ردت فيها على قصيدة أهداها لها أمير الشعراء أحمد شوقى ، ونشرت فى "الجريدة" ونذكر بعض أبيات من قصيدة "ملك" وفيها توضح الوظيفة والمهمة التى خلقت من أجلها الفتاة فهى الزوجة والأم التى تقوم على رعاية بنتها وأولادها ، وأن فى هذه الوظيفة مجد لها لا ينكر فتقول:

مَجْدُ الفَتَاةِ مُقَامُهَا ∴ فِى البَيْتِ لا فِى المَعْمَلِ
وَالمَرْءُ يَعْمَلُ فِى الحُقُو ∴ لِ وَعُرْسُهُ فِى المَنْزِلِ
كَمْ خِدْمَةٍ يقضى نظا ∴ مُ البَيْتِ إِنْ لَمْ تَعْمَلِ
مَنْ لِلْوَلِيدِ يُعِينُهُ ∴ فِى لِبسِهِ وَالمَأْكَلِ
مِنْ لِلرّضَاعَةِ والحَضَا ∴ نَةِ والفطِامِ وَمَا يَلِى
مَنْ لِلْمَرِيضِ يَحُوطُهُ ∴ أَبَدَاً بِدُونِ تَمَلْمُلِ

استطاعت "ملك" أن توضح دور المرأة بحكم طبيعتها كأنثى فهى الأم التى ترعى أولادها وتقوم على تربيتهم ، ولم تكن "ملك" أماً ، فقد حرمتها الطبيعة هذه

النعمة ، ولكنها كانت أماً بالفطرة لبنات جيلها ، تربى وتهذب وتنشأ وتنصح وترشد ، وتفرح وتحزن وتشاركهن مشاعرهن ، وهذا ما لمحناه فى أشعارها ، فكان شعرها غاية لتحقيق آمالها وهدف للتقويم والإصلاح.

كما كانت له ملامحه وسماته الفنية التى تميز بها ونذكر أهم هذه الملامح:

(أ) التجربة الشعرية: من سمات شعر باحثة البادية صدق التجربة الشعرية ، فشعرها خير معبر عن أحاسيسها وانفعالاتها ومصور لآلامها ومعاناتها وهذه أبيات من قصيدة قالتها ملك ترثى فيه صديقتها التى توفيت بعد ولادة أول طفل لها متأثرة بحمى النفاس ، فهى تهيب بالقبر الذى احتوى هذا الجسد الغض وتركت وراؤها طفلاً صغيراً يقاسى ألم اليتم والحرمان فتقول:

يَا قَبْرُ لاَ تَعْبَثْ بِغَضّ قُوَامِهَا ∴ واحْرصْ عَلَيهِ إِنَّهُ لَرَطِيْبُ
جَاءَتْ بِأُكفَانٍ وَثَوْبِ زَفَافِهَا ∴ لَمْ يَبْلَهْ ، وَاللهِ ذَاكَ عَجِيْبُ
إِنِّى أَفَاطِمُ مُذْ نُعُوكِ عَلِيلَةٌ ∴ قَلْبِى وَطَرْفِى ذَائِبٌ وسُكُوبُ
مَا كُنْتُ أَدْرِى قَبْلَ خَطْبِكِ بِالأَسَى ∴ حُتَّى دَهَتْنِى الْيَومَ مِنْهُ ضُرُوبُ
أَرَضِيتَ سُكْنَى القَبْرِ؟وكيفَ وَأَنْتِ لَمْ ∴ يُعْجِبْكِ بَيْتٌ كُنْتِ فِيهِ رَحِيبُ

هذه الأبيات صورت حال الشاعرة وهى تنعى صديقة عمرها التى اختطفها الموت وهى مازالت شابة ، وهى توصى القبر بألا يعبث بهذا القوام الغض الذى كفن ولم يبل بعد ثوب زفافها ، وتنكر على صديقتها وهى تسألها كأنها لم تمت بأنها رضيت سكنى القبر وهى التى لم يعجبها بيت رحيب كانت تعيش فيه.

وتعبر "ملك" عن صدق شعورها فى هذه الأبيات التى ترثى فيها أستاذها وشيخها "الإمام محمد عبده" إذ تقول:

عَاجَلْتَ يَا مَوْتُ مَوْلاَنَا وَسَيِّدَنَا ∴ تَبَّتْ يَدَاكَ لَقَدْ أَوْرَثْتَنَا العُدْمَ
كَلاَمُه الدُرُّ إِلا أَنَّهُ حِكَمُ ∴ فَهَلْ سَمِعْتَ بِدُرٍّ يُنْتِجُ الحُكِمَ

لَوْ لَمْ يُدَبِّجْ سِوَى التَّفْسِيرِ مَنْطِقُهُ ∴ لَجَلَّ قَدْراً كَمَا تَهْوَى العُلاَ وَسَمَا
إِذَا علا مِنْبَراً فَاضَتْ بَلاَغَتُهُ ∴ بِالمَوْعِظَاتِ نَسِيتُ العُرْبَ والعَجَمَ
لاَ غَرْوَ إِنْ كَانَ بِالإِصْلاَحِ مُضْطَلَعاً فَإِنَّهُ عَاشِقُ الإِصْلاَحِ مُذ فُطِمَ

استطاعت الشاعرة أن تعبر بصدق عن حزنها العميق على فقدها للشيخ الإمام فقد خاطبت الموت ولامته عند تعجله بالإمام ، واستخدمت كلمة "تبت يداك" دعاء عليه بهذا التعجل الذى بفقده فُقِدَتِ الحِكْمَةُ وَالمَوْعِظَةُ وقُوِّضَ الإصلاح الذى كان هو رائده ، وقد صورت الشاعرة الحال بعد وفاة الإمام خير تصوير إذ قالت:

مُحَمَّدُ ضَاعَت الآمَالُ وَارْتَجَعَتْ ∴ إِلَى الوَرَاءِ أَمَانِى سَرَتْ أُمَمَا
غَاضَ الوَفَاءُ كَمَا فَاضَ الشقَاقُ وَقَدْ ∴ زَادَ النِفَاقُ فَأَمَّا الحَقُّ فَاهْتَضَمَا
وَالدَّهْرُ آلَى فَلاَ حَوْلٌ وَلاَ حِيَلُ ∴ أَنْ لاَ يُرَاعِى لَنَا إِلا وَلاَ ذِمَمَا
وَقَدْ قَضَى اللهُ أَنْ نَبْقَى بِمُنْخَفَضِ ∴ نَرَى عَلَى هَامِنَا مَنْ غَيْرِنَا قَدِمَا

❁❁❁❁❁❁

استطاعت "ملك" أن تجسد مشاعر الحزن والألم بعد فقد الشيخ محمد عبده الذى فقدت معه كل الآمال فى الإصلاح والتقدم والنهضة؛ لأنه كان رائد هذا الإصلاح وراعى هذا التقدم والتطور ونجدها فى البيت الأخير تبدى أسفها وحزنها كأنما قضى الله له أن يتقدم غيرهم عليهم وأن يظلوا فى تأخر فنلاحظ صدق مشاعر "ملك" دون تَكَلُّفٍ أو اصطناع فقد قررت حقائق ثابتة لا مراء فيها.

إن صدق التجربة فى شعر "ملك" وحيويتها وعمقها وأصالتها ليست مقصورة على ما ذكرناه من نماذج ، بل شملت معظم أشعارها التى كانت خير مُعَبِّرٍ عنها ، ومصور لحياتها ولآلامها.

(ب) الوحدة الموضوعية والعضوية: نعنى بالوحدة الموضوعية والعضوية "وحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع" ووحدة التجربة ، وبالتأمل فى شعر "ملك" نرى هذه الوحدة وقد انتظمت فى معظم قصائدها ، فكانت "ملك" تعمد فيها

إلى الموضوع مباشرة بلا مقدمات ، فالقصيدة عندها تدور من أولها إلى آخرها حول موضوع واحد كما فى قصيدتها عن "الحجاب والسفور" وهى قصيدة طويلة تقع فى اثنين وثلاثين بيتاً ، وهى دليل على أن الوحدة الموضوعية تحققت فى قصائدها ، وليست مقصورة على مقطوعاتها التى لا تتحمل المقدمات فنجدها تقول فى أول القصيدة:

أَعْمَلتُ أَقْلاَمِى وَحِيْنَا مَنْطِقِى ∴ فِى النُّصْحِ وَالمَأْمُولِ لَمْ يَتَحَقّقِ
وَظَنَنْتَ إِخْلاَصِى يُفِيدُ وَهِمَّتِى ∴ تفضى بمن أشقى لهن إلى الرُّقِى
أَكْبَرْتُ نَفْسِى أَنْ يُقَال تَمَلَّقَتْ ∴ لاَ كَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَى بَتَمَلُّقِ
وَإِذَا تَسَلَّقَ بِالخَدِيعَةِ كَاتِبٌ ∴ يَبْغِى بِهَا العَلْيَاءَ لَمْ أَتَملَّقِ

وتقول فى نفس القصيدة مخاطبة الرجال:

هَلْ قُمْتُمُو بِفُرُوض نِسْوَتِكُمْ وهَلْ ∴ هَذَّبْتُمو مِنْ طَبْعِهِنَّ الأَخْرَقِ؟
أَسَبِقْتُمُونَا لِلْفَضِيلَةَ والتُّقَى ∴ وَخَشِيتُمُوُ الهَلْكَاتِ إِنْ لَمْ تَلْحَقِ؟
تَتنقَّلُون لِمُنْتَدَى مِنْ قَهْوَةٍ ∴ وَنَسِاؤُكُم فِى أَلْفِ بَابٍ مُغْلَقِ

❁❁❁❁❁❁

وتنهى "ملك" القصيدة قائلة:

فَدَعُوا النّسَاءَ وَشَأْنَهُنَّ فَإِنَّمَا ∴ يَدْرِى الخَلاَصَ مِنَ الشَّقَاوَةِ مَنْ شَقَى
وَأَمَامَكُمْ غَيرُ القِنَاعِ مَآزِقٌ ∴ أَولَى بِها التفكيرُ مِن ذَا المَأْزَقِ
لَيْسَ السُّفُورُ مَعَ العَفَافِ بِضَائِرٍ ∴ وَبُدُونِه فَرْطُ التَّحَجّبِ لا يَقِى

❁❁❁❁❁❁

استطاعت "ملك" أن تضع هذه القصيدة فى إطار متكامل متجانس لا انفكاك ولا تجزئه فيه ، فبدت كالجسد المتكامل أعضاؤه ، لا يغنى عنه غيره فى موضعه ،

إلا كما تغنى الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف ، فالقصيدة هنا تصوير فنى حى ، مؤثر للصراع النفسى المتأجج فى نفس الشاعرة ، والذى ينتهى بتصريح لها عن رأيها فى هذه القصيدة.

(ج) الألفاظ والأساليب: مما لا شك فيه أن اللفظة هى جوهر العمل الشعرى ، والوعاء الذى يصب فيه الشاعر معانيه وخواطره ، وصوره ومشاعره ، وموسيقاه ، كما أن اختيارها مرتبط بواقع الشاعر النفسى ، فهى جزء من شخصيته ونفسه فى شتى أحوالها ، والألفاظ التى استخدمتها "ملك" فى أشعارها نابعة من نفس مطبوعة بشخصيتها ، غنية بمشاعرها ، ثرية بإحساساتها وعواطفها وهذا ما أضفى عليها الرقة والعذوبة ، كما جاءت ألفاظها مناسبة لأغراضها فقويت فى مواطن القوة ، وضعفت فى مواطن الرقة فتقول فى قصيدة لها:

قَوْمِى عَلَيْكُمْ بِتَقَوْى اللهِ إِنَّكُمُو ∴ رُزِئْتُمُو بِصُرُوفِ الدَّهْرِ والغِيَرِ
مَاتَتْ جُدُودٌ لَكُمُ لَكِن ذِكْرَهُمُو ∴ بَاقٍ لَنَا فِى جَبِينِ الدَّهْر كَالغُرَرِ
قَدْ خَلَّفُوا الفَضْلَ وَالأَزْمَانُ شَاهَدَةٌ ∴ بَمُجْدِهِم وَدَلِيلُ القَوْلِ فِى الأَثَرِ
وَأَنْتُمُو فِى الشَّبَابَ الغَضّ لَيْسَ لَكُمْ ∴ سِوَى المَسَاوِى فِى أَلفٍ مِن الصُّوَرِ

❁❁❁❁❁❁

استخدمت الشاعرة "ألفاظاً سهلة بعيدة عن الصعوبة والتعقيد ، موحية مؤثرة فى النفوس ، عبرت عن خواطر الشاعرة ومشاعرها دون تكلف ، فهى توصى قومها بتقوى الله وتطلب منهم السعى والجد فى العمل ، ونلاحظ تكرار كلمة "الدهر" لتذكرهم بأن أحداث الزمن دائمة التغيير لا تبقى على حال واحد.

تميزت "ملك" بأسلوب معبر فيه تصوير صادق لمشاعرها وتجسيد حى لعواطفها وخواطرها فتقول فى قصيدتها مجد الفتاة:

مَـــــنْ لِلْوَلِيـــــدِ يُعِينُـــــهُ ∴ فِـــــى لِبْسِـــــهِ وَالمَأْكَـــــلِ
وَيُمِـــيطُ عَنَـــهُ أَذَى الهَـــوَى ∴ بِتَلَطُّـــــــفٍ وَتَحَيُّـــــــلِ
مَـــنْ لِلرضَّـــاَعة والحَضـــا ∴ نَـــةِ والفِطَـــامِ وَمَـــا يَلِـــى
مَـــن لِلْمرِيـــضِ يَحُوطُـــه ∴ أَبَـــداً بِـــدُونِ تَمَـــلْمُـــلِ

يلاحظ تكرار كلمة "من" والتى تشعرنا بـالجو النفسـى وبلظـى الانفعـال الوجدانى الذى تعيشه الشاعرة وتنبئ عن توهج العاطفة ووفرة المشاعر.

واستخدمت الشاعرة بعض الصور البلاغية التى تأتى عفو الخاطر ، وبـلا تكلف لتضفى على الألفاظ جمال الإيقاع ، وروعة التنسيق ، وموسيقية الـنغم مثـل قصيدتها فى رثاء عائشة التيمورية إذ قالت:

أَلاَ يَا مَـوْتُ وَيْحَـكَ لَـمْ تُـرَاعِ ∴ حُقُوقَـاً للطُـرُوسِ وَلاَ اليَـرَاعِ
تَرَكْـتَ الكُتْـبَ بَاكِيـةً بُكَـاءٍ ∴ يَشِيبُ الطِفْلُ فِى مَهْـدِ الرِّضَـاعِ
ولَـمْ تَهَـبِ الفَضَـائِلَ وَالمَعَـالِي ∴ وَطُولَ السَّعْيِ فِى خَيْرِ المَسَـاعِي
ولَـمْ يَمْنَعْـكَ مِمَّـا رُمْـتَ نَـثْرٌ ∴ وَلاَ شِعْـرٌ وَلا حُسْـنُ ابْتِـدَاعِ

❁❁❁❁❁❁

استخدمت الشاعرة كلمة "ويحك" توبيخاً للموت الذى هجـم علـى عائشـة وقضى عليها ، ولم يراع عطاءها فى الكتابة ، فلم يمهلها تكمل مسيرتها.

فخلفت وراءها الكتب تبكيها بكاء يشيب له الطفل وهو فى مهده ، ويلاحـظ تكرار الحرف "لم" ، كما يلاحظ الجناس فى السعى والمساعى ، و "باكية – بكاء" أدى دوره فى تحقيق الإيقاع الموسيقى.

وقالت "ملك" فى قصيدة لها أرسلتها إلى أبيها عندما علمت بأنـه سـيجرى عملية جراحية فى عينيه وقد منعتها ظروفها أن تذهب إليه:

مَـنْ مُبْلِـغٍ عَنِّـى طَبِيبَـكَ أَنَّـهُ ∴ يَفْرِى بِمِبْضَعِهِ حَشَـاىَ وَأَضْـلُعِى

يُخْبِرُكِ صَدْرِى بالحَقِيقَــةِ إِذْ بَــدَا ∴ مِنْ إِثْرِ طَعْنَتِهِ السُّــعَالُ مُشَــايِعِى
فَلَئِنْ سَكَتُّ فَمِنْ ضَرُورِاتِ الأَسَــى ∴ وَلَــئِنْ سَــعُلْتُ فَزَفْــرَةُ المُتَفَجِّــعِ
وَلَئِـــنْ بَكَيْـــتُ فَإِنَّمَــا لِتَذَكُّرِى ∴ عَيْنَيْكَ تُفْتَــحُ بِالسِّنَــانِ المُشْــرَعِ

استخدمت الشاعرة بعض الألفاظ الموحية ، المعبرة عن حزنها وألمها لما يشعر به والدها من ألم أثناء مرضه ومن هذه الألفاظ ، يفرى ، حشاى ، أضلعى ، وزفرة ، المتفتجع.

واستخدمت الشاعرة بعض الأساليب الإنشائية المتنوعة من أمر ، ونهى واستفهام ونداء وأمر إذ تقول:

فَذُبْ يَــا قَلْــبُ لاَ تَــــكُ فِــى ∴ وَزِدْ يَــا دَمْــعُ لاَ تَكُ فِى امْتِنَاعِ جُمُـــودِ

وتخاطب ابن صديقتها التى توفت وتركته يتيماً:

عِــشْ يَا مُحَمَّــدُ بَعْــدَ أُمِّــكِ سلوة ∴ لأَبِيـــكَ إِنْ غَابَتْ فَلَيْــسَ تَغِيــبُ

وتقول للمرأة فى تصريف همها:

اصْرِفِى مَا اسْتَطَعْتِ عَنْكِ الهُمُومَا ∴ وَاحْذَرِى الحُزْنَ وَالأَسَى أَنْ يُقِيمَــا
قَدَرِى إِنْ أَصَــابَكِ الشَّــر يَــوْماً ∴ أَنْ مَــازَالَ عَنْــكِ كَـــانَ عَظِيمَا

وتقول الشاعرة متعجبة من أمر الرجال فى دعوتهم إلى سفور المرأة:

هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الفَتَــاةِ سُــفُورَهَا ∴ وَلَكِـــنْ أَيْـــنَ بَيْـــنَكُمُ التَّقِـــى
هَلْ قُمْتُمُو بِفُروضِ نِسْوَتِكِمْ وَهَــلْ ∴ هَــذَّبْتُمُو مِــنْ طَــبْعِهِنَّ الأَخْــرَقِ
أَسَبَقْتُمُونَــا للفَضِيلَــةِ والتُّـــــقَى ∴ وَخَشِيتُــو الهَلَكَاتِ إِنْ لَــمْ تَلْحَقِ

(د) المعانى والأفكار: للمعانى آثارها فى تمثيل رؤى الشاعر الفكرية وخواطره النفسية ، وتتفاوت فى شعره قوة وضعفاً ، ووضوحاً وغموضاً حسب قوة شعوره أو فتوره ، وصدق التجربة أو زيفها.

واستخدمت الشاعرة ملك حفنى ناصف ، معانى قريبة المأتى ، واضحة القصد بعيدة عن الغموض ، وما ذاك إلا لأنها كانت تعبر فى شعرها عن عاطفة جياشة ، وشعور قوى دافق ، وتجربة حية مثل قولها:

القَيْد ذُلٌّ لَوْ يَكُو ∴ نُ خَلاخِلاً فِى الأَرْجِلِ
وَغَدَاً يُعزيه وتَأْ ∴ مُرُهُ بحُسْنِ تَجَمّلِ
ويَقُولُ إِنَّ الحَبْسَ حُرٌّ ∴ زَمْنٌ تُقصى الأَجدلِ

استطاعت الشاعرة أن تصور هذه المشاعر من خلال واقعها المحس وأحداث عصرها ، فكانت المرأة مقيدة مكبلة بقيود صارمة ، لا تستطيع أن تغيرها أو تحيد عنه ، وقد بينت أن هذه القيود تصل بالمرأة إلى الذل والمهانة حتى ولو كانت من حلى ، وتقصد بالقيود حرمان المرأة من التعليم ، والعمل وممارسة حياتها الطبيعية.

وتجسد الشاعرة بمعانى واضحة ترسم من خلالها لوحة من أجمل لوحات التصوير الفنى من خلال هذه الأبيات التى ترثى فيها صديقتها إذ تقول:

حُمَّى النِّفَاسِ فَجَعْتِ بَعْلاً لَمْ يَكَدْ ∴ يَرْتَاحُ حَتَّى كَدَّرَتْهُ شُعَوبُ
حُمَّى النِّفاسِ وَضَعْتِ غُصْنَاً قَدْ بَدَا ∴ إِثْمَارُهُ وَجَنَاهُ كَادَ طَبِيبُ
حُمَّى النِّفَاسِ أَمَا رَحِمْتِ مُحَمَّدَاً ∴ وَبُكاؤُهُ يُصْمِى الحَشَا وَيَذُوبُ
كَمْ نَقَّبَتْ فِى الطِّبِ تَبْغِى حَمْلَهَا ∴ وَلَرُبَّ شَرَّجَرَّهُ التَنْقِيبُ

استطاعت الشاعرة، أن تجسد معانى الأسى والحزن على صديقتها فى أروع تصوير ، فقد جعلت من "حمى النفاس" الذى أصابت صديقتها بعد الولادة ، سبباً فى

هلاكها وحزن بعلها ويتم ابنها ، كما صورت الشاعرة حيرة صديقتها قبل أن تموت وهى تبحث وتنقب عند الأطباء من أجل أن تنجب وكأنما كانت تنقب عن هلاك لها.

وتتجلى المعانى الرائعة المعبرة فى العديد من قصائد "ملك" فهذه أبيات لها عن صفة الحياء وهى الزينة الفطرية التى تتحلى بها المرأة، جسدتها لنا فى تصوير حى إذ تقول:

إِنَّ الفَتَاةَ حَدِيقَةٌ وَحَيَاؤُهَا ∴ كَالمَاءِ مَوْقُوفٌ عَلَيْهِ بَقَاؤُهَا
بِفُرُوعِهَا تَجْرِى الحَيَاةُ فَتُكْتَسَى ∴ حُلَلاً يَرُوقُ النَّاظِرَاتِ رُوَاؤُهَا
إِيْمَانُهَا بِاللهِ أَحْسَنُ حِلْيَةٍ ∴ فِيهَا فَإِمَّا ضَاعَ ضَاعَ بَهَاؤُهَا
لاَ خَيْرَ فِى حُسْنِ الفَتَاةِ وَعِلْمَهَا ∴ إِنْ كَانَ فِى غَيْرِ الصَّلاَحِ رِضَاؤُهَا

استطاعت الشاعرة أن تصور حياء الفتاة والذى شبهته بالماء الذى يروى ويرعى الحديقة الغناء المثمرة النضرة اليانعة ، وتقصد بها الفتاة فإن هذه النضارة فى الحديقة موقوف على الماء الذى تستمد منه الأزهار والثمار حياتها ، وفى البيت الثالث تصور الشاعرة أن حياء الفتاة فى إيمانها بالله تجسده فى أقوالها وأفعالها وتصرفاتها ، وتنهى الشاعرة هذه الأبيات بحكمة نابعة عن تجربة وخبرة بالحياة ، بأن لا خير فى علم الفتاة وحسنها إن كان فى غير الصلاح رضاؤها.

وكتبت "ملك" فى وصف البحر فى حالة صفوة وكدره

فتقول فى حالة صفوه:

"أيها البحر إنك زهواً ، نعم المركب الذلول ، كأن صفحتك من الغمام ، يصطخب الموج بين أحشائك ويتلاشى كألفاظ الحساد تمر بسمع الحليم ، وتشق البواخر جوف عبابك فتصبر عليها صبر الكليم ، تحمل من الأثقال والأكدار ما لو حملته الجبال لخرت هداً كأن صوتك الهادئ كموجات لحن شجى ، وكأن أمواجك المزيدة متتابعة متقابلة سرايا جيش منظم يحمل رايات السلام.

استعانت الشاعرة فى وصفها للبحر بمعانى واضحة بعيدة عن التعقيد ، فقد شبهت اصطخاب الموج وتلاشيه وهى تمر وسط البحر بألفاظ الحساد وهى تمر بسمع حليم ، كما وصفت صفاء البحر وهدوئه باللحن الشجى العذب فى موسيقاه ونغمه ، وشبهت تتابع أمواجه المزبدة بفرق الجيش الحربية التى تحمل رايات السلام.

وقالت "ملك" فى حالة غضب البحر وثورته:

"وإذا عبست أيها البحر وكشرت عن نابك فسرعان ما تعبث ، فإن الموت فى تقطيب حاجبيك ، يصرح الشر باسمه عند زمجرة منك ، كأن جوفك كان مملوءا أسوداً ، فلفظتها فاغرة أفواهها تبلع من تصادف فى طريقها ، يدوى صوتك كالرعد القاصف ، فيمطر وابل المنايا بغير ولى " ما أظلمك أيها البحر من مستبد غاشم تأخذ البرئ بدم المجرم ، أو تأخذه بلا جريرة ، إن الله لا يظلمك إذ جعلك مِلْحَاِ أُجَاِجَاً.

نلاحظ فى العبارة السابقة صورة تعبيرية رائعة ، نسقت الشاعرة خطوطها بدقة جمعت بين عمق المعنى وقوة الخيال ، فتصور البحر فى غضبه كمن يكشر عن أنيابه وإذا قطب حاجبيه يكون الموت المحقق وتنتقل إلى صورة تعبيرية رائعة حيث شبهت التهام البحر فى حالة غضبه بالأسود الفاغرة أفواهها ، ونلمح فى العبارة السابقة عنصر الحركة ، وقد عبرت عنها ملك فى قولها: تبلع – يدوى – يمطر – لفظها.

نلاحظ أن ملك استعانت ببعض الصور الخيالية فى العبارة السابقة والتى نشرتها فى "الجريدة" تحت عنوان "شعر منثور" ، ولكننى أرى أن ما كتبته ملك يعد نثراً فنياً صورت فيه الأديبة حالة البحر فى صفائه وغضبه كى يكون عبرة للإنسان وهذا ما هدفت إليه الأديبة إذ تقول فى نهاية هذه الكتابة النثرية:

"ما أكفر الإنسان وما أضعف إيمانه ، أين قوته واختراعه من قدرة الله سبحانه إن فى البحر وحده حالتى صَفْوِه وهُيَاجِه لعبرة لقوم يعقلون ، فسلام عليك أيها البحر ضاحكاً وعبوساً ، وسلام عليك أنك أبو الكون ومحيطه وسلام عليك لو لم يكن لك فضل إلا وصل مصر بأجزاء العالم ، لكفاك بذلك فضلاً ، ولم لم يكف ماؤك أن يصل لمصر لأكلته بشرايينى"(١).

❁❁❁❁❁❁

تعقيب عام:

هذه بعض كتابات "ملك" الأديبة المبدعة التى جعلت من أدبها وسيلة جيدة لإصلاح ما وجدته فاسداً ، لتصل إلى غايتها المنشودة التى كرست لها حياتها وهى الإصلاح ، ولم تقتصر "ملك" على إصلاح بعينه أو على نوع منفرد من الإصلاح ، فوجدنا عبر هذه الكتابات النثرية التى تنوعت بين المقالة ، الخطبة وبين نظمها للشعر، وسائل عديدة لتحقيق الإصلاح الدينى والاجتماعى والاقتصادى والتعليمى ، لقد وضعت "ملك" اللبنات الأولى لقواعد هذا الإصلاح والتى سار على دربها من بنات جيلها الكثيرات ونحن نقر بأن ما وصلت إليه المرأة اليوم من تعليم ووعى وما وصلت إليه من مناصب ومنزلة رفيعة وما تحقق لها من مساواة كان بفضل جهود وجهاد السابقات وكانت أولهن رائدة الإصلاح "ملك حفنى ناصف" وهذا ما قالته الأديبة "مى" فى حفل تأبينها:

" كل من قرأها شعر يجاذبها من خلال الصحائف ، وكل تأثر بكتاباتها وفقاً لاستعداده ، القارئ منا والقارئة ، وكما كانت موحية أول كتاب عربى عن كاتبة عربية ، كذلك كانت أول امرأة مصرية – وأكاد أقول شرقية – تعاون الرجال والنساء على الاحتفاء بتأبينها احتفاءً رسمياً.

وقالت السيدة هدى شعراوى وقد حملت راية الإصلاح بعد وفاة ملك:

(١) النسائيات – ملك حفنى ناصف – ص٢٥.

"اجتمعنا اليوم لنحيى ذكرى باحثة البادية ، ولست بحاجة أن أبين لكم مقدار الخسارة التى نالتنا بوفاتها فى عنفوان شبابها ، وبدء جهادها ، وما نطالب به اليوم من مساواة المرأة بالرجل فى فروع التعليم ، وإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية ، وجعلها منطبقة تمام الانطباق على روح التشريع الدينى ومساواة المرأة بالرجل فى الحقوق النيابية ، وظلت تنادى بها منذ نعومة أظفارها ، وقد عاجلتها المنية قبل أن تنعم بتحقيق شيئاً منها ، فماتت فى أول الطريق وها نحن أولاء اليوم ، نجاهد على أثرها ولنا بعض التعزية إذا متنا لأننا قد كوفئنا بتحقيق بعض الأمانى التى حرمت باحثة البادية مشاهدتها وهذا مصير كثير من المجاهدين الأولين فى هذه الحياة".

وقد نعتتها رائدة التعليم فى مصر السيدة نبوية موسى فى قصيدة بليغة قالت فيها:

مَلَكٌ لَقَدْ جَحَدَ الرِّجَالُ نُبُوغَنَا ∴ ونَسَوكِ لَمَّا زَالَ عَهْدُكِ والقَبَرْ
هَلْ تَقْدِرِينَ عَلَى الكَلاَمِ لِيَعْلَمُوا ∴ أَنَّ النِسَاءَ أَجَلُّ مَنْ يُلْقِى الدُّرَرْ
لَوْ أَنَّهُمْ سَمِعُوكَ يَا ابْنَةَ نَاصِفٍ ∴ تَتَسَامَرِينَ لَهَا لَهُمْ حُلْوَ السَّمرْ
قُومِى فَخُطِّى مِنْ بَيَانِكَ أَسْطُرا ∴ تَهْدى العنيدَ وكُلَّ مَنْ فَقَدَ البَصَرْ
رُدّى لَنَا الفَضْلَ الَّذِى ولَّى فَقَدْ ∴ دُفِنَ الكَمَالُ بِجَوَفِ قَبْرِكِ وَانْدَثَرْ
هُبَّى نُدافِعُ عَنْ كَرَامَةِ جِنْسَنَا ∴ فَسِوَاكِ لاَ نَرْضَاهُ فِى كَرٍّ وفَرَ
هُزَّى اليَرَاعَ فَإِنَّ طُولَ سُكُونِهِ ∴ حَرَمَ النِّسَاءَ مِنَ الرُّقِيِ المُنْتَظَرْ
هُزَّى اليَرَاعَ فَإِنَّ مِصْرَ بِحَاجَةٍ ∴ لِيَرَاعِ فَاضِلَةٍ وَعَقْلِ مُقْتَدِرِ

❁❁❁❁❁❁

ولو عاشت "ملك" اليوم لكانت رائدة مرة أخرى ، رائدة تدعو إلى تعميق جذور النهضة النسائية ، وامتداد فروعها لتشمل المرأة العربية بعامة.

وبعد فقد كان هذا الموضوع حول (النتاج الأدبى لباحثة البادية "ملك حفنى ناصف") ، وقد توصلت من خلال دراسته إلى جملة نتائج من أهمها:

١- أن قضية "المرأة المصرية" كانت من أهم قضايا عصر النهضة وكانت محور جهود رواد الإصلاح ، فقد ساءهم ما كانت عليه المرأة من حال وما وصلت إليه من وضع اجتماعى فدعوا إلى إصلاح وضع المرأة ونادوا بتحررها ، وبأحقيتها فى التعليم ومشاركتها للرجل فى ميادين العمل.

٢- أوضحت الدراسة أن "ملك حفنى ناصف" تعد أول رائدة من رواد الإصلاح، حتى ولو سبقت دعوتها مؤشرات إصلاحية إذ كانت دعوة "ملك" شاملة ومؤثرة، حيث وضعت منهجاً وسطياً تسير عليه وتدعو إليه فلم تتطرف فى دعوتها للإصلاح كما فعل كثير من رواد الإصلاح فدعت إلى تحرر المرأة لا إلى تحريرها.

٣- أثبتت الدراسة تميز ملك فى كتابتها للمقالات والتى وجدتها خير وسيلة فعالة لتحقيق غايتها الإصلاحية ، وتعد مقالاتها من قبيل "مقالة النقد الاجتماعى" وقد زاوجت فى مقالاتها بين الأسلوب الرصين والقدرة على إثارة اهتمام القارئ وتشويقه وإقناعه وبين التحليل الدقيق للظواهر الاجتماعية السلبية فى المجتمع المصرى فى عصرها ، كما لمست بعض الجوانب السياسية فى المجتمع وعرضتها فى مقالاتها ووضعت حلولاً لما رأته من سلبيات.

٤- أوضحت الدراسة أن ملك أول من أقرت باقتراحاتها العشرة فى خطبتها والتى قامت بنشرها فى "الجريدة" وقد عملت بعض المؤسسات والهيئات فى تنفيذ هذه الاقتراحات التى كانت تهدف إلى إصلاح حال المرأة وحال المجتمع المصرى ومن هذه الاقتراحات: تعليم البنات الدين الصحيح ، وتعليمهن التعليم الابتدائى والثانوى وجعل التعليم إجبارياً ، تعليم البنات التدبير المنزلى علما وعملاً ،

وقانون الصحة وتربية الأطفال ، والإسعافات الوقتية فى الطب ، إطلاق الحرية فى تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد ، اتباع الطريقة الشرعية فى الخطبة فلا يجتمع اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

٥- أثبتت الدراسة كذلك موقف "ملك" الحيادى فى عرضها لبعض قضايا المجتمع والتى تناولتها ملك فى مقالاتها فوضحت مساوئ الرجال ومساوئ النساء وعرضت سلبيات وإيجابيات الجنسين ووضعت الحلول الإيجابية لسلبيات الطرفين ، وبينت الدراسة استمالة "ملك" لبعض القضايا الاجتماعية التى فرض فيها الرجل سطوته وظلمه ، مثل ازدرائه بالمرأة ، وتعديه على حقوقها وسلبها لأموالها ، وزواجه بأخرى دون علمها.

٦- كانت "ملك" أول من أعادت الخطابة إلى الأندية النسوية بعد أن طُمِسَتْ معالم هذه السُّنَّةِ، رغم قلة خطبها إلا أنها استطاعت أن تحقق الغاية منها وهو: "الإصلاح" وهذا ما وضح فى خطبتها فى المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، فقد عرضت هذه الخطبة بأسلوب منطقى وتفكير مرتب ، بعيد عن التكلف والتنميق والغلو وهذه عدة الخطيب الناجح.

٧- تفوقت "ملك" فى قرضها للشعر رغم قلته وندرته إلا أنها موهبة ورثتها عن أبيها ، وعملت على نضجها بالقراءة والاطلاع وحفظ العديد من الأشعار حتى أجادت فى نظم القصائد وبينت أن موضوعات "شعرها" دلت على حماستها الشديدة ورغبتها فى الإصلاح وإثارة حمية المرأة فى مصر لرفع الظلم والجهل عنها.

٨- كانت ملك أديبة متعددة المواهب وظفت أدبها لتحقيق غايتها الإصلاحية فكانت رائدة إصلاحية ، وضعت اللبنة الأولى فى طريق الإصلاح ، إصلاح حال المرأة

والمجتمع وأن ما وصلت إليه المرأة اليوم من علم ورقى هو بفضل جهاد مـــن سبقوها مثل "ملك"

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١- آثار باحثة البادية "ملك حفنى ناصف" – مجد الدين حفنى ناصف –المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع.

٢- الإنسانية والتمدن – جورجى أنطون – دار المعارف.

٣- الصناعتين – أبو هلال العسكرى.

٤- العقاد ناقداً – عبد الحى أديب – دار الشعب.

٥- الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة – أنيس المقدسى – دار العلم للملايين.

٦- النساء ولعبة السياسة – حنفى المحلاوى – الدار المصرية اللبنانية.

٧- النسائيات – ملك حفنى ناصف – الجزء الأول والثانى – دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع.

٨- بلاغة النساء فى القرن العشرين – فتحية محمد – مطبعة السعادة.

٩- تاريخ الأدب العربى – على الجارم وأحمد ضيف – وزارة المعارف العمومية ١٩٣٧.

١٠- تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عهد محمد على – محمد جمال الدين الشيال – مطبعة القاهرة.

١١- تاريخ المصريين – عصر التنوير – د. نبيل راغب – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨.

١٢- تربية المرأة والحجاب – محمد طلعت حرب – مطبعة الترقى ١٨٩٩م.

١٣- جمال الدين الأفغانى تاريخه ورسالته ومبادئه – محمد أبو ريه – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١٤- حاضر المصريين أو سر تأخرهم – محمد عمر – مطبعة المقتطف.

١٥- دراسات أدبية – أحمد هيكل – دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م.

١٦- رواد التنوير – د. شبل بدران – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

١٧- زعماء الإصلاح فى العصر الحديث – أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م.

١٨- شاعرات عربيات – روحية القلينى – الدار القومية للطباعة والنشر.

١٩- صوت الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم – د. جابر قميحة – دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع.

٢٠- فن المقال "تطوره وأنواعه فى العصر الحديث" د. صفوت يوسف زيد – مطبعة التركى بطنطا.

٢١- فى الأدب المعاصر – د. عبد الرحمن عثمان – ط. دار النشر للجامعات المصرية ١٩٦٨م.

٢٢- فى الحياة والأدب – سلامة موسى – المجلة الجديدة.

٢٣- قصة الأدب فى العالم – أحمد أمين وزكى نجيب محمود – الجزء الثالث – مطبعة القاهرة ١٩٤٨م.

٢٤- قمم ورموز على طوابع البريد – حسن محمود الشافعى – الهيئة العامة لقصور الثقافة.

٢٥- ليالى سطيح – حافظ إبراهيم – مطبعة الوحدة ١٩٥٩م.

٢٦- نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام – أحمد إبراهيم الهوارى – الطبعة الثانية ١٩٨٦م.

٢٧- من أدباء الإسلام المعاصرين – على الجمبلاطى – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

ثانياً المجلات:

١- مجلة الأستاذ – عبد الله النديم – عدد يناير ١٨٩٣م.

٢- مجلة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد الثانى ١٩٨٩م.

ثالثاً: المقالات:

١- مقال.. "رأى فى الزواج وشكوى النساء منه" ضمن مجموعة مقالات فى "النسائيات" لملك حفنى ناصف – ط – دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع.

٢- مقال.. "الحجاب والسفور"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٣- مقال.. "مدارسنا وفتياتنا"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٤- مقال.. "عشر وسائل لترقية المرأة المصرية"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٥- مقال.. "الزواج يا للنساء من الرجال ويا للرجال منهن"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٦- مقال.. "تعدد الزوجات"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٧- مقال.. "سن الزواج"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٨- مقال.. "من مبادئ النساء" – عدم الثقة بالزوج أو الغيرة العمياء، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

٩- مقال.. "من مبادئ النساء يبغضن أقارب الزوج"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٠- مقال.. "من مبادئ النساء سرعة الغضب والتهديد بالفراق"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١١- مقال.. "من مساوئ الرجال الطمع"، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٢- مقال.. "من مساوئ الرجال الظلم" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٣- مقال.. "من مساوئ الرجال ، الازدراء بالمرأة" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٤- مقال.. "لماذا يضيع الرجل تأثيره الحسن فى أسرته" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٥- مقال.. "جمال السيدات يضيعه التبغ والخمر" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٦- مقال.. "جمال السيدات والرياضة البدنية" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٧- مقال.. "احترام الآراء وآداب الانتقاد" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

١٨- مقال.. "الكلفة بين الزوجين" ، ضمن مجموعة مقالات فى النسائيات.

رابعاً الخطب:

١- خطبة ألقتها فى دار الجريدة ، ونشرت فى الجريدة تحت عنوان "أول خطيبة مصرية".

٢- خطبة "فى المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الغربية" ألقتها فى نادى حزب الأمة.

٣- فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٨٨٣
عصر باحثة البادية	٨٨٥

الناحية الدينية ٨٨٦
الناحية التعليمة والفكرة ٨٨٧
بدء اليقظة الإسلامية..... .... ٨٨٨
وضع المرأة فى مصر ورأى دعاة الإصلاح فى النهوض بها..... ..... ٨٩٢
حياة باحثة البادية ملك حفنى نشأتها وملامح شخصيتها..... ..... ٨٩٥
حركة ملك الإصلاحيةن فى مصر..... .... ٨٩٩
النثر الفنى لباحثة البادية غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية
أولاً : المقال فى نثر باحثة البادية..... .... ٩٠١
السمات الفنية لمقالات باحثة البادية ملك حفنى ناصف..... ..... ٩٢٦
ثانياً : الخطابة و ملامحها الفنية..... .... ٩٣٦
شعر ملك حفنى ناصف غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية..... ..... ٩٤٤
تعقيب عام..... .... ٩٦٠
ثبت المصادر والمراجع ٩٦٤

..... الفهرس ٩٦٨

٤ - فهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

تقديم ٨٨٣
عصر باحثة البادية ٨٨٥
الناحية الدينية ٨٨٦
الناحية التعليمة والفكرة ٨٨٧
بدء اليقظة الإسلامية..... .... ٨٨٨
وضع المرأة فى مصر ورأى دعاة الإصلاح فى النهوض بها..... ..... ٨٩٢
حياة باحثة البادية ملك حفنى نشأتها وملامح شخصيتها..... ..... ٨٩٥
حركة ملك الإصلاحيةن فى مصر..... .... ٨٩٩
النثر الفنى لباحثة البادية غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية
أولاً : المقال فى نثر باحثة البادية..... .... ٩٠١

السمات الفنية لمقالات باحثة البادية ملك حفنى ناصف..... ٩٢٦

.....

ثانياً : الخطابة و ملامحها الفنية..... .... ٩٣٦

.....

شعر ملك حفنى ناصف غاياته الإصلاحية وملامحه الفنية..... ٩٤٤

.....

تعقيب عام..... .... ٩٦٠

ثبت المصادر والمراجع ٩٦٤

.....

الفهرس ٩٦٨

٦- ❁❁❁